بسم الله الرحمن الرحيم

التعليق على كتاب:

الفرقان

بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان

لفضيلة الشيخ:

د. عبد العزيز الريس

١٤٣٩هـ

المحتويات

- المقدمة.....٢

- مضمون الكتاب وسبب تأليفه.....٢

المقدمة الأولى: اسم الصوفية لم يكن يُعرف في القرون الاولى إنما عرف بعدُ.....٣

تنبيه: قد يستشكل البعض ثناء بعض أهل العلم كابن تيمية على الصوفية والجواب عن ذلك.....٣

المقدمة الثانية: للصوفية اصطلاحات خاصة بهم لابد أن تُعتبر عند التعامل معهم أو الحكم عليهم ٤

المقدمة الثالثة: بين ابن تيمية أن الكرامات لابد من ضبطها لأنه قد ضل فيها طوائف من أهل البدع ٦

- أكثر ابن تيمية الكلام في الكرامات في موضع من كتبه منها ٦

مسألة: أهل السنة يؤمنون بالآيات والكرامات وخوارق العادات عند السحرة و غيرهم ولكنهم يفرقون بينها ..٦

مسألة: بيان إطلاق الآية و الكرامة و المعجزة عند أهل السنة.....٦

مسألة: أهل السنة لا يحصرون الآيات بأن تكون على وجه التحدي وإنما هذا قول المتكلمين كالأشاعرة.....٧

مسألة: لا يصح جعل الكرامة دليلا على صلاح الرجل.....٧

مسألة قد ضل في الآيات والكرامات طائفتان ٧

تنبيه: المعتزلة لا يؤمنون بالسحر الحقيق بل يثبتون التخيلي فحسب.....٨

تنبيه: الأشاعرة خالفوا أهل السنة في باب الكرامات من جهتين.....٨

مسألة: حاول بعض الصوفية تسويغ الشرك من باب الكرامات ولا حجة لهم في ذلك.....٩

تنبيه: بين الكرامات وخوارق العادات فروق منها.....٩

تنبيه: علم غيب المستقبل خاص بالله و لا يُظهر عليه إلا.....٩

تنبيه: كيف يجمع ين كون علم الغيب بالمستقبل خاصا بالله و بين ما يكون في المنامات و الفراسة من ذلك ؟ ... ١٠
- الفراسة ثلاثة أنواع ١٠
بداية كتاب الفرقان ١٤
- التعليق على حديث أبي هريرة (من عادى لي وليا..) دراية ورواية ١٧
مسألة: هل تثبت صفة التردد لله؟ وما المراد بها؟ ١٨
- حديث (من عادى لي وليا) لم يأت بشيء جديد، وذلك أنّ ١٨
فائدة: إذا لم يكن الراوي شديدا في الضعف و لم يأت بشيء جديد فإنه يُسهّل فيه ما لا يُسهّل في غيره ١٨
- بيان ضابط المنافق ٢٤
- الضابط في التفريق بين النفاق الأكبر والنفاق الأصغر ٢٤
- يكثر في الصوفية تعظيم أهل الصفة بما يخدم مذهبهم الشركي أو البدعي ٢٦
- ما المراد بأهل الصفة؟ ٢٦
تنبيه: حال أهل الصفة لم يكن عن تقصد منهم ٢٦
قاعدة مهمة: ما جاء وفاقا فإنه لا يكون قصدا ، فإن جُعل قصدا كان بدعة ٢٧
- المراد بقوله (الأبدال) ٢٩
تنبيه: لم يصح حديث في الأبدال ٢٩
تنبيه: قد يطلق أهل السنة (الأبدال) ويريدون به خلاف مراد الصوفية ٢٩
- المراد من قول (النقباء) ٢٩
- فائدة مهمة من حديث (.. أولى الطائفتين بالحق..) ٣٠

فائدة: خطأ شائع في استعمال لفظ (متواجد) ٣١
تنبيه "حديث (..حتى سقطت البردة) لا يصح عنه ٣١
- بيان هل النبي صلى الله عليه وسلم واسطة ٣٤
تنبيه: الكفر غلاب و البدعة غلابة و الفسق غلاب ٣٥
- الكرامات من حيث الجملة قسمان ٣٧
تنبيه: الكبائر لا تُكفَّر بالأعمال الصالحة إجماعا ٤٢
- التقرب بالمباح لذاته بدعة لا تجوز ٤٨
- بيان الفرق بين الملك والخليفة ٤٨
- معاوية رضي الله عنه أفضل ملوك الإسلام بالإجماع ٤٨
تنبيه: مهما كان من فضل التابعي عمر بن عبد العزيز فيبقى الصحابي معاوية خير منه ٤٨
- الصحابة خير الأمة جنسا و فردا بالإجماع ٤٩
- أحاديث الشفاعة تنافي معتقد الخوارج و المرجئة وترد عليهم ٥٤
- معتقد الخوارج في الإيمان ٥٤
- معتقد المرجئة في الإيمان ٥٤
- سبب ضلال الخوارج والمعتزلة والمرجئة في باب الإيمان ٥٥
- جواب دقيق للإمام أحمد على مرجئة الفقهاء ٥٥
تنبيه: إذا أطلق السلف الـ (مرجئة) فإنهم يريدون مرجئة الفقهاء ٥٥
تنبيه: لابد من التفريق بين المفرط وغير المفرط ٥٩

- هناك أمور لا يُعذر فيها بالجهل ٥٩
- فرق بين الكافر الأصلي ومن عرض له الكفر بعد إيمانه ٦٠
- مسألة العذر بالجهل اختلف أهل السنة فيها خلافا معتبرا ٦٠
- أهل السنة يعتقدون أن أسماء الله وصفاته متفاضلة ٦٣
فائدة: لا يلزم من قول عالم في حديث (تلقته الأمة بالقبول) أن يكون صحيحا عنده ٦٦
- المكاشفة قد تكون لأهل الإيمان ٦٨
- المكاشفة للصالحين لا تتجاوز أن تكون في الغيب الجزئي ٦٨
- الغيب نوعان ٦٨
- ليس لأهل الصلاح أو لأهل العلم لباس يتميزون به عن غيرهم إنما هذا من البدع ٧٠
- المراد من قوله (القباء) ٧١
- البدعة أشد أثما من الفسق بالإجماع ٧١
- المراد بـ (القراء) و (الفقهاء) عند الإطلاق ٧٢
- أصل كلمة (صوفي) ٧٣
مسألة: أي الأعمال التطوعية أفضل؟ ٧٧
- المراد بـ (دبر الصلاة) ٧٩
- حديث (إذا اجتهد الحاكم ...) يشمل الأمور العلمية والعملية ٨٣
الإلهام عند الصوفية ٨٤
تنبيه : حول تعليق الترمذي على حديث (اتقوا فراسة المؤمن) ٩٨

فائدة: يُطلق لفظ (الغريب) عند الأوائل ويراد به الضعيف ٩٨
- نسخ الترمذي يكثر فيها الاختلاف أوثقها تحفة الأشراف للمزي ٩٨
- الفرق بين (المنهاج) و (الشرعة) ١٠٠
- الفرق بين الإسلام العام والإسلام الخاص ١٠١
- الصحابة مجمعون على أن أفضل الأنبياء والرسل هو محمد صلى الله عليه وسلم ١٠٢
- المراد بـ(القرن) وما القرون المفضلة ١٠٣
- شيء من أثر دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وهذه الدولة في نصرة التوحيد والسنة ١٠٨
- شيء من كفريات ابن سينا وأشباهه من الفلاسفة ١١٠
- المراد من إطلاق (الأذهان) أو (الخارج) ١١١
- يزعم ابن عربي الطائي أن كتاب الفتوحات نزل عليه من الله ١٢٣
- فرق بين وحدة الوجود والحلولية ١٢٤
حصول الليل والنهار لا يكون بدوران الأرض حول نفسها ١٣٠
- الخلاصة في الإرادتين ١٣٤
- المعية لغة مطلق المصاحبة وكلّ معيته بحسبه ١٣٨
الفرق بين الشرع المنزل والشرع المؤول والشرع المبدل ١٥٠
- الجواب على ما جاء في كلام لابن تيمية فيه أن للولي أن يحيي الموتى ١٦٧
- قصة الغرانيق ١٧٦
- تلبس الجني بالإنسي ثابت بالكتاب والسنة والإجماع ١٧٧

رسالة (مفيد المستفيد) قائمة على أساسين..... ١٧٩

- شيء من فتنة جهيمان..... ١٨١

- من السماع البدعي في عصرنا ما يُعرف بالاناشيد الإسلامية..... ١٨٨

- فرق بين الشرك والتشريك..... ١٨٩

- من العبادات عبادة سماع القرآن..... ١٩١

- بيان بدعية ما يُعرف بالأناشيد الإسلامية..... ١٩٢

- أربع أوجه في الرد على من أجاز الاستعانة بالجن في المباح..... ٢٠٢

- سماع البعيدات خاص بالله..... ٢٠٥

بسم الله الرحمن الرحيم

فقد طالعت على عجل تفريغًا لدورة في التعليق على كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-، قام بتفريغه بعض الإخوة الأفاضل ووضعوا له فهرسًا.

أسأل الله أن يتقبله وأن يجعله نافعًا لخلقه، مقبولًا عنده سبحانه.

د. عبد العزيز بن ريس الريس

المشرف العام على موقع الإسلام العتيق

@dr_alraies

١٧ / ١٠ / ١٤٣٩هـ

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

ففي اليوم الثلاثين من شهر جمادى الأولى لعام تسعٍ وثلاثين وأربعمائة وألف من هجرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وفي مدينة الأحساء أعزها الله بالتوحيد والسنة وجميع مدن ودول المسلمين، ألتقيكم في تعليق على كتاب (الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان) لشيخ الإسلام أحمد بن تيمية -رحمه الله تعالى-، في دورة وفي درس بيوم واحد عصر هذا اليوم والمغرب والعشاء -إن شاء الله- ولا حول ولا قوة إلا بالله.

هذا الكتاب كتاب عظيم في بابه، بل هو فريد في موضوعه، ومضمون هذا الكتاب هو عنوانه، فقد ألفه شيخ الإسلام -رحمه الله- ليذكر الفوارق بين الأولياء صدقًا والدخيلين عليهم، أي بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، وسبب تأليف هذا الكتاب هو الرد على الصوفية الذين جعلوا أقوامًا أولياء لله وهم ليسوا كذلك، فلذا ألّف هذا الكتاب في ذكر الفارق بين أولياء الرحمن وغيرهم، فبهذا يقطع الطريق على هؤلاء الصوفية، وهذا هو موضوع الكتاب، فهو في الأصل رد على الصوفية، وموضوعه التفريق بين أولياء الرحمن وبين غيرهم.

وقبل البُداءة بالتعليق على هذا الكتاب أحب أذكر بمقدمات:

المقدمة الأولى:

ينبغي أن يُعلم أن اسم ولفظ "الصوفية" لم يكن موجودًا في القرون الثلاثة الأول، وإنما اشتهر بعد ذلك، وإن كان يوجد من تكلم به لكنه اشتهر بعد القرون المفضلة، فقد تكلم بلفظ "الصوفية" الإمام أحمد وسفيان الثوري، ونُقل عن الحسن البصري، لكنه ما اشتهر إلا بعد القرون المفضلة، كما بيّن هذا شيخ الإسلام ابن تيمية كما في (مجموع الفتاوى).

لذا ينبغي أن يُعلم أن علماء الإسلام كشيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم لا يذمون الصوفية مطلقًا، لأن الصوفية من حيث الاطلاق هم أناس تعبّدوا وتسمّوا بالصوفية، فلذا ينبغي أن نعلم أن الصوفية ليسوا مذمومين مطلقًا لأنهم صوفية، فقد تطلق الصوفية ويُراد بها التعبّد، وينبغي لأهل السنة أن يعرفوا مثل هذا لأنه قد حصلت مناظرات بين أهل السنة وبعض الصوفية في بعض البلدان فذم بعض أهل السنة الصوفية مطلقًا فعارضهم أولئك بأن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم لم يذموا الصوفية مطلقًا بل فصّلوا فيهم، فظن بعض إخواننا أن مجرد الانتساب للصوفية مذمة، وأن مجرد التسمي بالصوفية مذمة، وهذا خطأ، فقد أطلقت الصوفية بمعنى التعبّد، فيقال: "عابد" ويقال "صوفي"..وبهذه المعاني.

لكن اشتهر لفظ "الصوفية" بأنهم أهل بدع، وكلما تأخر الزمان كثرت فيهم البدع، بل والشركيات في الألوهية والربوبية، لذا أكثر المنتسبين من الصوفية هم ما بين مبتدعة أو مشركين في الربوبية أو الألوهية بحسب أحوالهم.

فالمقصود أنه ينبغي أن يُعلم أن الذم ليس لكل صوفي وإنما لمن تنسّك بطريقة مخالفة إما ببدعة أو شرك في الألوهية والربوبية، ومع ذلك أكثر الصوفية لا سيما من المتأخرين قد وقعوا في الضلال كما تقدم، فإذا ذمّ ذامٌ الصوفية فهو يريد من باب الأكثر والغالب، لكن لو جاءت المحاقّة وجاء التفصيل وجاءت المناظرة فلا بد من التفصيل حتى لا يُدخل على السني السلفي ويُحاجّ بكلام شيخ الإسلام ابن تيمية أو ابن القيم أو غيرهما من أئمة السنة ممن لم يذموا الصوفية على الاطلاق.

المقدمة الثانية:

الصوفية لهم اصطلاحات وألفاظ وعبارات، يُطلقون اللفظ الذي هو في ظاهره باطل لكن لهم اصطلاحًا ومرادًا بهذا اللفظ، فلذا من أراد أن يُحاجّ الصوفية أو أن يحكم عليهم فليحكم عليهم بمدلول لفظهم وبما يريدونه من لفظهم، ولا يحاكمهم بظاهر اللفظ وهم يريدون خلاف ذلك، هذا من العدل والإنصاف كما بيّن هذا ابن تيمية –رحمه الله– وبيّنه ابن القيم –رحمه الله– كثيرًا في كتابه (مدارج السالكين).

والصوفية مخطئون في أنهم اصطلحوا لهم اصطلاحات وعبارات وأرادوا خلاف الظاهر، لكن خطؤهم في أنهم غيروا دلائل الألفاظ، وجعلوا لهم اصطلاحات خاصة لا يفهمها إلا من يعرف اصطلاحاتهم فمن قرأ كلامهم ممن لا يعرف اصطلاحاتهم فهِم خلاف مرادهم، لكن هذا الخطأ شيءٌ وأن يُحمّلوا بظاهر اللفظ من الشرك والبدعة شيءٌ آخر.

وفي المقابل قد استغلّ ذلك أناس من الصوفية في الدعوة إلى الشرك والبدعة بحجة أن لهم اصطلاحات ومعاني تخالف وتغاير ظاهر اللفظ، لكن هذا أيضًا ليس حجة لهم على الاطلاق، لأنه يقال: أتدعون فلانًا من دون الله؟ أتعتقدون أن فلانًا يتصرّف في الكون؟ أجبني بما شئت، المهم هل تعتقدون مثل هذا أم لا؟

فينبغي لمن أراد أن يناظرهم أو يناقشهم أن يكون فطنًا وأن لا يُخدع بحيث يقال: إن لهم اصطلاحات، نعم لهم اصطلاحات، ولا يُعاملون بظاهر اللفظ مطلقًا، لكن ليس هذا مبررًا أن يدخلوا ما شاءوا في دين الله بحجة أن لهم اصطلاحات، لذا يُسألون مباشرة: هل تعتقدون الاحتفال باليوم البدعي كيوم المولد؟ هل تعتقدون أن فلانًا يتصرف في الكون؟ هل تعتقدون أن فلانًا يعلم الغيب؟..إلخ، إذن مثل هذا ينبغي أن يُعرف حتى نكون أهل عدل من جهة الحكم عليهم ومن جهة معرفة الرد عليهم.

المقدمة الثالثة:

مما ذكر شيخ الإسلام في هذا الكتاب مبحث الكرامات، وقد ذكر –رحمه الله– من المباحث في التفريق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وأن الكرامات حق، لكن هناك أقوامًا استغلوا الكرامات استغلالًا باطلًا كالصوفية، فينبغي للسني السلفي أن يدرس باب الكرامات وأن يضبطها، فقد ذكر شيخ الإسلام –رحمه الله– في كتابه (الفرقان بين عبادة أهل الإسلام وعبادة أهل الشرك) :أن هذا الباب مهم وينبغي أن يُضبط، وأن كثيرًا من المتكلمين ضلوا في هذا الباب، وصدق –رحمه الله–، وقد أطال الكلام شيخ الإسلام ابن تيمية على ما يتعلق بالكرامات والآيات في كتابه (النبوات)، وأصل الكتاب في الرد على الأشاعرة في دلائل النبوة، ومن ذلك الكلام عن الكرامات والآيات.

وسأذكر بعض المسائل التي تتعلق بباب الكرامات:

- **المسألة الأولى**: أهل السنة يؤمنون بالآيات للأنبياء، وبالكرامات للأولياء والصالحين، وبخوارق العادات للسحرة والكهنة، ولكنهم يفرقون بين ذلك، ولكلٍ أدلته في الكتاب والسنة، والمقام مقام إشارات.
- **المسألة الثانية**: أهل السنة يسمون ما يجري على يد الأنبياء بالآيات، وهذا الغالب عندهم وقد يسمونه بالمعجزات، ويسمون ما يجري على أيدي الصالحين بالكرامات، وقد يسمونه بالمعجزات، لأن ما يجري على أيدي الأولياء والصالحين هو دلالة على صدق نبوة النبي الذي اتبعه، فما يجري

على أيدي الصالحين في أمة محمد -صلى الله عليه وسلم- هو دليل على صدق دعوة نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم-.

- **المسألة الثالثة**: أهل السنة لا يحصرون الآيات في ما كان على وجه التحدي، وإنما يفعل ذلك أهل البدع من المتكلمين كالأشاعرة، وللأسف قد رأيت كثيرًا من أهل السنة يعرّفون الآيات والمعجزات بأنها ما جرت على يد النبي على وجه التحدي، وهذا خطأ، وإنما هذا قول المتكلمين، بل ذكر شيخ الإسلام -رحمه الله- أن الآيات التي جرت على يد النبي -صلى الله عليه وسلم- لم تكن على وجه التحدي، إلا القرآن.
- **المسألة الرابعة**: وجود الكرامات عند الرجل لا يدل على صلاحه على الإطلاق، بل إن الكرامات عند التابعين أكثر منها عند الصحابة، وكذلك عند أتباع التابعين أكثر منها عند التابعين، فلا يلزم من كثرة الكرامات أن تكون علامة ودليلًا على صلاح الرجل، بل قد تكون الكرامة رحمة به لتثبيته على الحق، إذن لا يلزم منها أن يكون الرجل صادقًا وصالحًا..إلخ، وقد أفاد هذا شيخ الإسلام ابن تيمية وهذا مما أخطأت فيه الصوفية، فإنهم إذا أرادوا أن يثنوا على رجل وأن يمجدوه، قالوا: إن له كرامات.
- **المسألة الخامسة**: قد ضل في باب الآيات والكرامات طائفتان:
  - **الطائفة الأولى**: المعتزلة، وهم لم يؤمنوا بشيء من خوارق العادات، لا بالكرامات التي تجري على أيدي غير الأنبياء ولا بخوارق

العادات التي تكون للسحرة، لذا لا يؤمنون بالسحر الحقيقي وإنما بالسحر التخيلي، ولا يثبتون إلا الآيات التي يسمونها بالمعجزات التي تجري على يد الأنبياء.

- **الطائفة الثانية**: الأشاعرة، وهم يثبتون الآيات للأنبياء ويسمونها بالمعجزات ويثبتون الكرامات للأولياء والصالحين، ويثبتون خوارق العادات التي على أيدي السحرة والكهنة، لكنهم لا يثبتون شيئًا من الآيات إلا على وجه التحدي، فيقولوا: المعجزات التي تكون على أيدي الأنبياء تكون مقرونة بالتحدي ولا تكون إلا على وجه التحدي، وتقدم أن هذا خطأ.

وكذلك من أخطائهم أنهم يقولون: كل معجزة للنبي تكون للولي، وليس هناك ما يختص به الأنبياء دون الأولياء من خوارق العادات، قالوا: إلا القرآن، وهذا خطأ كبير، فقد اختص الأنبياء بالآيات الكبرى وبآيات لم تكن لغيرهم، كانشقاق القمر، وإحياء الموتى..إلى غير ذلك.

فالمقصود أنهم ضلوا في هذا الباب من جهة أنهم حصروا الآيات التي يسمونها بالمعجزات في التحدي، هذا أولًا، وثانيًا قالوا: كل ما يجري على يد النبي يجري على يد الولي إلا نزول القرآن فإنه خاص بالنبي.

- المسألة السادس: حاول الصوفية المبتدعة بل والمشركة أن يجعلوا باب الكرامات بابًا في تسويغ الشرك، من جهة الأولياء والصالحين، ولو دُقّق وحقق في هذا الباب لعُلم أنه ليس لهم ممسك ولا مدخل في نشر البدع والشركيات عن طريق الكرامات، وذلك أن وجود الكرامات على يد الرجل لا يدل على صلاحه مطلقًا بل قد تكون لتثبيته، ثم من الفوارق بين الكرامات وخوارق العادات التي تكون على أيدي السحرة والكهنة أن يُنظر في حال الرجل، إن كان صالحًا فهي من الكرامات، وإن كان ضالًا وداعية لضلالة وشرك فهي من خوارق العادات.

ثم يُنظر من حيث المآل، الكرامات يُراد بها نصرة الدين وموافقة الدين ونصرته، وما يُرجع فيه إلى ما ينفع الدين، سواء في الشخص أو في دعوته..إلخ، أما خوارق العادات فهي على خلاف ذلك، فإذا قال قائل: إن فلانًا له كرامات وهو رجل صالح، فعليه: أعتقد أنه يستحق أن تُصرف له العبادة، فيقال: هل هو يُقرك على ذلك؟ فإن قال: نعم، فيقال : إذن ليس صالحًا ولا وليًا، بل مشرك، وإن قال: لا يقر ذلك، فيقال: هذا الأمر بالأدلة الشرعية خاص بالله سبحانه، فلا يصح أن يُفعل له سواء أقر أو لم يُقر، وإن قال: إن من كراماته أن يعلم الغيب في المستقبل، فيقال: علم الغيب في المستقبل خاص بالله وبمن يطلعهم عليه من الرسل، سواء كان الرسول البشري أو الرسول الملكي، كما قال سبحانه في سورة الجن: {عالم

الغيب فلا يُظهر على غيبه أحدًا إلا من ارتضى من رسول}، فإذن لا يمكن لأحد باسم الكرامات أن يعلم الغيب في المستقبل لأنه خاص بالله، فمن ادّعى ذلك فهو كاذب قطعًا.

إذن إذا دُقّق في بحث الكرامات فليس لأحد من دعاة الشرك والبدعة أن يتمسك بذلك في الدعوة إلى البدعة أو إلى الشرك، وهذا مهم للغاية فمهما ادعوا الكرامات فيُحاجّون بمثل هذا.

- **تنبيه:**

علم الغيب في المستقبل خاص بالله، ولقائل أن يقول: ماذا يُقال في الرؤى والمنامات؟ وماذا يقال في الفراسة؟ فإن في الرؤى والمنامات قد يرى الرجل في نومه أشياء في المستقبل، وعلم الغيب خاص بالمستقبل؟ فيقال: قال الحافظ ابن رجب -رحمه الله- في شرحه على البخاري وهو يتكلم عن علم الغيب بالفراسة والمنامات..إلخ، قال: مثل هذا لا يُعارض أن علم الغيب في المستقبل خاص بالله، والسبب أن ما يُرى في المنام أو ما كان من باب الفراسة فهو من الظن، وعلم الغيب الذي اختص الله به هو ما كان من باب اليقين، فإن من رأى رؤية منام أو علم شيئًا في المستقبل بالفراسة، فإن هذا من باب الظن، أما علم الغيب اليقيني فإنه خاص بالله.

وينبغي أن يُعلم أن الفراسة أنواع ثلاثة:

- **النوع الأول**: الفراسة الخلقة، وهذا علم ويُدرس، يقولو: إذا كان الرجل بعيد ما بين المنكبين فهذا يدل على حلمه، وإن كان عظيم الرأس يدل على ذكائه، وهذه أمور خلقية تقريبية، وهو عِلمٌ قد سافر الإمام الشافعي إلى اليمن لدراسته، وقد تكلم عنه الإمام ابن القيم في كتابه (مدارج السالكين) وفي كتابه (مفتاح دار السعادة)، وتكلم عنه ابن الأثير في كتابه (النهاية)، وابن أبي العز الحنفي في شرحه على الطحاوية.
- **النوع الثاني**: الفراسة الرياضية وهو أن يجوّع الرجل نفسه إلى حد بحيث يصفى ذهنه ويصبح عنده حدة في الفهم ودقة، وهذه الفراسة و التي قبلها يستوي فيهما المسلم والكافر.
- **النوع الثالث**: الفراسة الدينية، قال تعالى: {إن في ذلك لآيات للمتوسمين}، ذكر ابن جرير آثارًا عن التابعين وغيرهم أن المراد به الفراسة، وهذه شيء يُوقعه الله في قلب عبده، قد يعلم شيئًا في المستقبل، لكن علم هذا من باب الظن، وقد عبّر بعض أهل العلم أنه نوع من أنواع الكرامة.

وهذه الأنواع الثلاثة ذكرها ابن القيم في (مدارج السالكين)، وابن أبي العز الحنفي في شرح الطحاوية، أما ابن الأثير فذكر نوعين، الذي يُكتسب بالعلم، والذي يكون نورًا يقذفه الله في قلب العبد.

ورأيت بعض المعاصرين أنكر الفراسة الدينية، وقد أخطأ في ذلك، والفراسة الدينية قد عبر بعض أهل العلم أنها نوع من الكرامة لكنها من الظن لا من العلم كما قد تقدم، وقد يصيب الرجل فيه وقد يُخطئ، ووقع لأبي بكر الصديق شيء من هذا كما في موطأ الإمام مالك لما أوصى عائشة بأخويها وأختيها، وعائشة تعرف أختها وأخويها، لكن لا تعرف الثانية، فقال: إني لأظنه الذي في بطن أسماء، أي في بطن زوجته، وقد ولدت بنتًا، وهذه فراسة.

وذكرت هذا لأن من الصوفية من يُريد أن يروج للبدع والشركيات باسم الفراسة، ويقول هو علم غيب في المستقبل، فيقال: هذا ليس علمًا وإنما هو ظن، كما بينه ابن رجب في شرحه على البخاري.

بعد هذا وقبل البُداءة في التعليق على هذا الكتاب أنبه إلى أن شيخ الإسلام –رحمه الله– يذكر أحاديث وآثار وقد يُتنازع في تصحيحها وتضعيفها، وفي ظني أن مثل هذا لا ينبغي أن يوقف عنده، فإنه عالم له اجتهاده، بل هو عالم مبرّز في علم الحديث، وقد يوافقه غيره وقد يخالفه، وقد يعلم هو أنه ضعيف لكنه يتساهل فيه لأن أصله ثابت..إلى غير ذلك.

وأيضًا مما أنبه عليه أن من عادة شيخ الإسلام –رحمه الله– أنه يستطرد ويأتي بالفوائد العظيمة استطرادًا، فمثل هذه أيضًا لا يتسع الوقت للوقوف مع هذه الفوائد، وإنما أجتهد وأسعى أن أقف على ما هو مُراد بالكتاب.

ثم أخيرًا قد تجد في النسخ اختلافًا، وفي ظني لا ينبغي أن يُوقف في هذه الاختلافات إذا لم تغيّر المعنى، وإن كان هناك اختلاف في الطبعات والنسخ وهذا الاختلاف لا يرجع إلى تغيير المعنى فالأمر سهل ولله الحمد.

بسم الله الرحمن الرحيم

رب تمم ويسّر

قال الشيخ الإمام العالم العلامة والقدوة الفهامة شيخ الإسلام وبركة الأنام وولي الله العلام أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني – رحمه الله تعالى– رحمة الأبرار، ووقاه عذاب النار وأسكنه دار القرار:

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدًا.

أرسله بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فهدى به من الضلالة، وبصر به من العمى، وأرشد به من الغي، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، ففرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغي، والمؤمنين والكفار، والسعداء أهل الجنة، والأشقياء أهل النار، وبين أولياء الله وأعداء الله.

فمن شهد له محمد صلى الله عليه وسلم بأنه من أولياء الله فهو من أولياء الرحمن، ومن شهد له بأنه من أعداء الله فهو من أولياء الشياطين.

وقد بين سبحانه وتعالى في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم أن لله أولياء من الناس، وللشيطان أولياء، ففرّق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

فقال الله تعالى: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم} وقال تعالى: {الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات

إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}.

وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين * فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين * ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين * يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم * إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون * ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون}.

وقال تعالى: {هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا}.

المراد من هذه الآيات بيان أن لله أولياء سبحانه.

وذكر أولياء الشيطان فقال تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم * إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون} وقال تعالى: {الذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا}.

وقال تعالى: {وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا}.

وقال تعالى: {ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا}.

وقال تعالى: {الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل * فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم * إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} وقال تعالى: {إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون * وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا} إلى قوله {إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون} وقال تعالى: {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم}، وقال الخليل عليه السلام: {يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا}، وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة} الآيات إلى قوله {إنك أنت العزيز الحكيم}

فصل:

وإذا عرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان، فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء، كما فرق الله ورسوله بينهما، فأولياء الله هم المؤمنون المتقون، كما قال تعالى: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون}.

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد

بارزني بالمحاربة – أو فقد آذنته بالحرب – وما تقرب إلي عبدي بمثل ما افترضت عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يبصر وبي يسمع، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته. ولابد له منه».

وقد تكلم في صحة هذا الحديث بعض أهل العلم كالذهبي –رحمه الله–، وذكر أنه لولا هيبة الصحيح لضعف هذا الحديث، وذلك أن في إسناده خالد بن مخلد القطواني، وهذا الرجل ليس إمامًا في الحفظ لكنه ليس ضعيفًا على الاطلاق، والمقصود أن المتكلمين في هذا الحديث صنفان: صنف تكلم عليه من جهة الدراية، أي من جهة المعنى، وقال: إن المعنى الذي يقرره هذا الحديث هو معنًى باطل..إلخ، وهؤلاء قطعًا مخطئون، فإن الحديث لم يأتِ بشيء جديد، ولم يقرر شيئًا من المعاني الباطلة، ففي الحديث أن من عادى أولياء الله فقد عاداه الله، والقرآن والسنة واضحة في ذلك، وفيه أن الفرائض أحب إلى الله من النوافل، وهذا كذلك بل عليه إجماع أهل العلم، وفيه أن التعبد لله يجعل الرجل وليًا، وهذا واضح، وفيه قوله: «كنت سمعه الذي يسمع به... »إلخ، المراد بذلك: المعية الخاصة، كما بيّنه الإمام ابن القيم –رحمه الله–، كقوله تعالى: {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون}، فليس فيه شيء جديد، فمن اتصف بالمعية الخاصة – أي بالصلاح– كان أحرى بالإجابة، «لئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني

لأعيذنه»، فليس فيه شيء جديد، اللهم إلا أن في آخره إثبات صفة التردد، وهذا لم أره في حديث، لكن ثبت عند ابن أبي شيبة عن حسان بن عطية التابعي المعروف، فقد أثبت صفة التردد، فبهذا لا يكون في الحديث شيء جديد يُشدد فيه، ولا غريب من جهة دلالته.

والمراد بصفة التردد كما ذكر في الحديث، أن يتنازع الأمر شيئان، وهذا الذي يتنازع فيه شيئان إما أن يكون دافعه الجهل وهذا منتف في حق الله، أو أن يكون دافعه ما ذكره في الحديث، يكره الموت وأكره إساءته، وهذا ليس مذمومًا، وقد أثبته تابعي جليل وهو حسان بن عطية، وقد تكلم الدارمي -رحمه الله- في أواخر رده على بشر المريسي في إثبات العقائد بأقوال التابعين، وعظّم ذلك شديدًا -رحمه الله تعالى-، ومثله أبو يعلى في كتابه (إبطال التأويلات)، وكلام أئمة السنة في هذا عمليًا كثير.

فالمقصود: ليس في الحديث شيء يستنكر من جهة المعنى والدراية.

أما من جهة الرواية: فمن المعلوم عند علماء الحديث أنه إذا لم يكن الراوي شديدًا في الضعف ومثله لم يأتِ بحكم جديد فإنه يُسهّل فيه ما لا يُسهّل في غيره، فمن أجل هذا -والله أعلم- سهّل الإمام البخاري ورأى أن خالد بن مخلط القطواني لم يأتِ بشيء جديد فيُحتاج أن يُشدد في روايته.

وهذا أصح حديث يروى في الأولياء، فبين النبي صلى الله عليه وسلم أنه من عادى أولياء لله فقد بارز الله في المحاربة.

وفي حديث آخر: «وإني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث الحرب» أي: آخذ ثأرهم ممن عاداهم كما يأخذ الليث الحرب ثأره، وهذا لأن أولياء الله هم الذين آمنوا به ووالوه، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يحب أن يرضى، وسخطوا بما يسخط، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما ينهى، وأعطوا لمن يحب أن يعطي، ومنعوا من يحب أن يمنع، كما في الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أوثق عرى الإيمان: الحب في الله والبغض في الله»، وفي حديث آخر رواه أبو داود وقال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان».

والولاية: ضد العداوة، وأصل الولاية: المحبة والقرب، وأصل العداوة: البغض والبعد.

وقد قيل: إن الولي سمي وليا من موالاته للطاعات، أي متابعته لها، والأول أصح.

والولي: القريب، يقال: هذا يلي هذا، أي يقرب منه.

أي الأصح أن يُقال: الولاية ضد العداوة، وأصل الولاة هي المحبة والقرب.

ومنه قوله صلى الله عليه وسلم: «ألحقوا الفرائض بأهلها فما أبقت الفرائض فلأولى رجل ذكر» أي لأقرب رجل إلى الميت.

وأكّده بلفظ الذكر ليبين أنه حكم يختص بالذكور لا يشترك فيه الإناث، كما قال في الزكاة: «فابن لبون ذكر».

فإذا كان ولي الله هو الموافق المتابع له فيما يحبه ويرضاه، ويبغضه ويسخطه، وما يأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معاديا لله، كما قال تعالى: {يا أيها الذين

آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة} فمن عادى أولياء الله فقد عادى الله وحاربه، فلهذا قال: «ومن عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة».

ووجه الدلالة من الآية قال: {لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء}، جعل عدو الله عدوًا لأوليائه، ومفهوم المخالفة أن ولي الله ولي لأوليائه، إذن خلاصة ما تقدم: أن هناك أولياء لله وأولياء للشيطان.

وأفضل أولياء الله هم أنبياؤه، وأفضل أنبيائه هم المرسلون منهم، وأفضل الرسل أولو العزم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين.
قال تعالى: {شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب} وقال تعالى: {وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا * ليسأل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا أليما}.

ففي آية الشورى والأحزاب جمع بين هؤلاء الخمسة وهم أولوا العزم، كما قال تعالى: {فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل}.

وأفضل أولي العزم: محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإمام المتقين، وسيد ولد آدم، وإمام الأنبياء إذا اجتمعوا، وخطيبهم إذا وفدوا، صاحب المقام المحمود الذي يغبطه به الأولون والآخرون، وصاحب اللواء المعقود والحوض المورود، وشفيع الخلائق يوم القيامة، وصاحب الوسيلة والفضيلة، الذي بعثه الله بأفضل كتبه، وشرع له أفضل شرائع دينه، وجعل أمته خير أمة أخرجت للناس، وجمع له ولأمته من الفضائل والمحاسن فيما فرقه فيمن قبلهم، وهم آخر الأمم خلقا، وهم أول الأمم بعثا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهذا – يعني يوم الجمعة – يومهم الذي اختلفوا فيه فهدانا الله له، فالناس لنا تبع فيه، غدا لليهود، وبعد غدٍ للنصارى».

وقال صلى الله عليه وسلم: «أنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة».

وقال صلى الله عليه وسلم: «آتي باب الجنة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: أنا محمد.

فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك».

وفضائله صلى الله عليه وسلم وفضائل أمته كثيرة، ومن حين بعثه الله جعله الفارق بين أولياء الله وبين أعدائه، فلا يكون وليا لله إلا من آمن به وبما جاء به، واتبعه باطنا وظاهرا..

وهذه قاعدة عظيمة : فإنه لا يكون الرجل وليًا لله إلا من آمن به وبما جاء به واتبعه ظاهرًا وباطنًا.

..ومن ادعى محبة الله وولايته وهو لم يتبعه، فليس من أولياء الله تعالى، بل من خالفه كان من أعداء الله وأولياء الشيطان.

قال تعالى: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم}، قال الحسن البصري رحمه الله: ادعى قوم أنهم يحبون الله، فأنزل الله هذه الآية محنة لهم وقد بين الله فيها أن من اتبع الرسول صلى الله عليه وسلم فإن الله يحبه، ومن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول فليس من أولياء الله تعالى.

وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله تعالى، ولا يكونون من أولياء الله..

وهذا كلام عظيم، فمن الناس من يظن في نفسه أو في غيره أنه ولي من أولياء الله وليس كذلك إذا لم يُؤمن بالنبي –صلى الله عليه وسلم– وبما جاء به، ولم يتبعه ظاهرًا وباطنًا، وادعاء الرجل الولاية لنفسه أو غيره لا يكفي، كما ادعى ذلك اليهود والنصارى.

..فاليهود والنصارى يدعون أنهم أولياء لله وأنه لا يدخل الجنة إلا من كان منهم، بل يدعون أنهم أبناؤه وأحباؤه.

قال تعالى: {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض وما بينهما وإليه المصير}، وقال تعالى: {وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم

صادقين * بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون}.

وكان مشركوا العرب يدعون أنهم أهل الله، لسكناهم مكة، ومجاورتهم البيت، وكانوا يستكبرون على غيرهم به، كما قال تعالى: {قد كانت آياتي تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامرا تهجرون} وقال الله تعالى: {وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين * وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين * وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم * وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون ومالهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون}.

وهذه آية عظيمة في أن من ادعى الولاية وليس كذلك فحاله كحال كفار قريش، فقد ادعوها وهم ليسوا كذلك، ولا يكون الرجل وليًا إلا بمتابعة الحق، لذا قال سبحانه: {إن أولياؤه إلا المتقون}.

فبين سبحانه أن المشركين ليسوا أولياءه ولا أولياء بيته، إنما أولياؤه المتقون.

وثبت في الصحيحين عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول جهارا من غير سر: «إن آل أبي فلان ليسوا لي بأولياء – يعني طائفة من أقاربه – إنما وليي الله وصالح المؤمنين» وهذا موافق لقوله تعالى: {وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين

والملائكة بعد ذلك ظهير}، وصالح المؤمنين: كل من كان صالحا من المؤمنين، وهم المؤمنون المتقون أولياء الله.

ودخل في ذلك أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وسائر أهل بيعة الرضوان الذين بايعوا تحت الشجرة، وكانوا ألفا وأربعمائة، وكلهم في الجنة، كما ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة» ومثل هذا الحديث الآخر: «إن أولياء الله المتقون أيا كانوا وحيث كانوا».

وكما أن من الكفار من يدعي أنه ولي لله، وليس بوليا لله، بل عدو له، وكذلك من المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويقرون في الظاهر بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وأنه مرسل إلى جميع الأنس، بل إلى الثقلين الأنس والجن، ويعتقدون في الباطن ما يناقض ذلك، مثل أن لا يقروا في الباطن بأنه رسول الله، وإنما كان ملكا مطاعا، ساس الناس برأيه من جنس غيره من الملوك، أو يقول: إنه رسول الله إلى الأميين دون أهل الكتاب..

وهؤلاء هم الذين ادّعوا أن النبوة بالكسب، ربط شيخ الإسلام –رحمه الله– بين فعل كفار قريش وبين كل من يدعي الولاية وليس كذلك، ومنهم المشركون وقد ورد بهم القرآن، ثم غيرهم من أهل هذه الأمة.

ثم ذكر المنافقين وأشار إلى أن منهم من يدّعي النبوة كسبًا، وينبغي أن يُعلم أن ضابط المنافق: هو ما كان فيه مخالفة بين الظاهر والباطن، والسر والعلانية، فمن خالف بين الظاهر والباطن والسر والعلانية فهو منافق، كما ذكر ذلك الحسن البصري فيما رواه الفريابي في كتابه عن المنافقين، وقال شيخ الإسلام كما في

(مجموع الفتاوى) ثم ابن رجب في (جامع العلوم والحكم): إن كانت المخالفة في باب الاعتقاد فهو النفاق الأكبر، وإن كانت المخالفة في باب العمل فهو النفاق الأصغر.

فعلى هذا لا يقال: إذا وعد الرجل أخاه بأمر، وفي نيته أن يفي بالوعد، ثم لما جاء وقت الإيفاء به لم يوفه إن هذه علامة من علامات المنافقين، لأنه لما وعد كان في نيته أن يفي بالوعد، وإنما التي هي من علامات النفاق هو: أن يُواعد وفي نيته أن لا يفي، ففي مثل هذا خالف الظاهر الباطن، وقد بيّن هذا ابن رجب –رحمه الله–.

ومما ذكر الحافظ ابن حجر في شرحه على البخاري أنه وجد تعليقًا لأبيه يذكر فيه أنه من الغريب عند الشافعية أن يصفوا من وعد ولم يف بالوعد أنه مكروه مع أن النبي –صلى الله عليه وسلم– جعله من صفات المنافقين، يقال: السبب في ذلك أنه لما واعد كان في نيته أن يفي بوعده، ومثل هذا ليس من صفات المنافقين، وإنما الذي من صفات المنافقين هو أن يعد وفي نيته أن لا يفي بالوعد.

..كما يقوله كثير من اليهود والنصارى، أو يقول إنه مرسل إلى عامة الخلق، وأن لله أولياء خاصة لم يرسل إليهم، ولا يحتاجون إليه، بل لهم طريق إلى الله من غير جهته، كما كان الخضر مع موسى، أو أنهم يأخذون عن الله كل ما كانوا يحتاجون إليه وينتفعون به من غير واسطة، أو أنه مرسل بالشرائع الظاهرة وهم موافقون له فيها.

وأما الحقائق الباطنة فلم يرسل بها، أولم يكن يعرفها، أو هم أعرف بها منه، أو يعرفونها مثل ما يعرفها هو من غير طريقته.

هذا كله فيه إشارة إلى الصوفية، وهم في ذلك على دركات، وذكر أيضًا الفلاسفة، وسيأتي بسط ذلك وبيانه أكثر في كلامه -رحمه الله تعالى-.

وقد يقول بعض هؤلاء: إن أهل الصفة كانوا مستغنين عنه، ولم يرسل إليهم، ومنهم من يقول: إن الله أوحى إلى أهل الصفة في الباطن ما أوحاه إليه ليلة المعراج، فصار أهل الصفة بمنزلته، وهؤلاء من فرط جهلهم، لا يعلمون أن الإسراء كان بمكة، كما قال الله تعالى: {سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله}.

يكثر في كلام الصوفية تعظيم أهل الصفّة، وهم متفاوتون في هذا التعظيم، وكلٌ يدّعي فيهم ما يخدم مذهبه ما بين بدعة أو شركٍ، وينبغي أن يُعلم أن أهل الصّفة هم أناس فقراء من صحابة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ليس لهم منازل ولا بيوت في المدينة، فنزلوا بالمسجد، وجعل لهم النبي -صلى الله عليه وسلم- مكانًا في شمال المسجد، فكان هذا منزلهم، فهم أولًا: لم يقصدوا هذا بل هذا هو حالهم، ثانيًا: قد لا يستمر الرجل منهم، قد يجلس الرجل منهم شهرًا ويذهب ويأتي غيره، فهم ليسوا أناس مخصصين وإنما من كان محتاجًا وجلس في المدينة ثم ذهب.

فإذن ليس أهل الصفة أناسًا مستمرين وإنما بحسب حاجتهم، ثالثًا: أن فعل أهل الصفة لم يكن مقصودًا، فلم يتقصّدوا أن يكونوا فقراء، ويكون لهم مكان في المسجد، وإنما قدر الله عليهم أن يكونوا فقراء وليس عندهم مأوى فاتخذوا هذا المكان.

ومن القواعد المهمة في باب البدع، وقد ذكر هذه القاعدة شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الاقتضاء) وفي غيره: أن ما جاء وفاقًا لا يُتخذ قصدًا، ومن جعل الذي جاء وفاقًا قصدًا فقد وقع في البدعة، فاتخاذ أهل الصفة لهذا جاء وفاقًا بحسب حاجتهم، فتقصّد ما جاء وفاقًا بدعة، ومن ذلك أن النبي –صلى الله عليه وسلم– كان يسير مع طريق في سفره..إلى غير ذلك، وهذا الطريق قد سار معه وفاقًا، وتقصّد هذا بدعة لأن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يتقصّده.

وأن الصفة لم تكن إلا بالمدينة، وكانت صفة في شمالي مسجده صلى الله عليه وسلم ينزل بها الغرباء الذين ليس لهم أهل وأصحاب ينزلون عندهم، فإن المؤمنين كانوا يهاجرون إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، فمن أمكنه أن ينزل في مكان نزل به، ومن تعذر ذلك عليه نزل في المسجد، إلى أن يتيسر له مكان ينتقل إليه.

ولم يكن أهل الصفة ناسا بأعيانهم يلازمون الصفة، بل كانوا يقلون تارة ويكثرون أخرى، ويقيم الرجل بها زمانا، ثم ينتقل منها، والذين ينزلون بها هم من جنس سائر المسلمين، ليس لهم مزية في علم ولا دين، بل كان فيهم من ارتد عن الاسلام وقتله النبي صلى الله عليه وسلم، كالعرنيين الذين اجتووا المدينة، أي: استوخموها، فأمرهم لهم النبي صلى الله عليه وسلم بلقاح – أي إبل لها لبن – وأمرهم أن يشربوا من أبوالها وألبانها، فلما صحّوا، قتلوا الراعي، واستاقوا الذود، فأرسل النبي صلى الله عليه وسلم في طلبهم، فأتى بهم، فأمر بقطع أيديهم وأرجلهم، وسمرت أعينهم، وتركهم في الحرة يستسقون فلا يسقون.

وحديثهم في الصحيحين من حديث أنس، وفيه أنهم نزلوا الصفة، فكان ينزلها مثل هؤلاء، ونزلها من خيار المسلمين سعد بن أبي وقاص، وهو أفضل من نزل بالصفة، ثم انتقل عنها، ونزلها أبو هريرة وغيره، وقد جمع أبو عبد الرحمن السلمي تاريخ من نزل الصفة.

وأما الأنصار فلم يكونوا من أهل الصفة، وكذلك أكابر المهاجرين– كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن ابن عوف، وأبي عبيدة بن الجراح وغيرهم – لم يكونوا من أهل الصفة.

أما الأنصار لأن لهم دورًا في المدينة، وأما كبار المهاجرين فقد آخى المهاجرين مع من هاجر معه في أول هجرته –صلى الله عليه وسلم– فصارت لهم دور مع إخوانهم.

وقد روي أنه كان بها غلام للمغيرة بن شعبة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «هذا واحد من السبعة»، وهذا الحديث كذب باتفاق أهل العلم وإن كان قد رواه أبو نعيم في الحلية، وكذلك كل حديث يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم في عدد الأولياء، والأبدال، والنقباء، والنجباء، والأوتاد، والأقطاب، مثل أربعة، أو سبعة، أو اثني عشر، أو أربعين، أو سبعين، أو ثلاثمائة، أو ثلاثمائة وثلاثة عشر، أو القطب الواحد أو الغوث الواحد، فليس في ذلك شيء صحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم ينطق السلف بشيء من هذه الألفاظ إلا بلفظ الأبدال.

قوله "الأولياء" هذا واضح، أما قوله: "الأبدال" لفظ صوفي يريد به الصوفية أقوامًا سبعة يقولون هم على قلب إبراهيم -عليه السلام- ويسافرون، حتى إن الرجل إذا سافر من مكان إلى مكان بقي بدنه في المكان ولم ينتقل منه، وهي من الخرافات الصوفية.

ولم يصح حديث في الأبدال كما بين هذا ابن تيمية في غير موضع، وقد يُعبّر أهل السنة بلفظ "الأبدال" ويريدون شيئًا غير المعنى عند الصوفية، أي أن الصالحين يبدل بعضهم بعضًا ويخلف بعضهم بعضًا، ولا يريدون بلفظ "الأبدال" ما يُريد به الصوفية.

و "النقباء" اصطلاح عند الصوفية، والنقيب هو كعريف القوم، وهم يدعون أنه يعلم بواطن الناس، وعددهم ثلاثمائة..إلى غير هذه المعاني البدعية عند الصوفية، وهي ما بين شرك أو بدعة.

وهكذا لهم اصطلاح في "النجباء" و "الأوتاد" و "الأقطاب"..إلى آخره.

وروي فيهم حديث أنهم أربعون رجلا، وأنهم بالشام، وهو في المسند من حديث علي بن أبي طالب، وهو حديث منقطع ليس بثابت، ومعلوم أن علي بن أبي طالب ومن معه من الصحابة كانوا أفضل من معاوية ومن معه بالشام، فلا يكون أفضل الناس في عسكر معاوية دون عسكر علي.

وقد جاء في الصحيحين عن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «تمرق مارقة من الدين على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق»، وهؤلاء المارقون هم الخوارج الحرورية الذين مرقوا لما حصلت الفرقة بين المسلمين في خلافة علي، فقتلهم علي بن أبي طالب وأصحابه، فدل

هذا الحديث الصحيح على أن علي ابن أبي طالب وأصحابه أولى بالحق من معاوية وأصحابه، وكيف يكون الأبدال في أدنى العسكرين دون أعلاهما.

وهذا الحديث الشاهد منه: «تمرق مارقة من الدين على حين فرقة من المسلمين يقتلهم أولى الطائفتين بالحق» أخرجه مسلم، وهذا الحديث يدل على أصح الأقوال في المسألة، وهو أن مع علي حقًا وأن مع معاوية حقًا، إلا أن الحق مع علي أكثر ممن مع معاوية، وعند معاوية خطأ وعند علي خطأ، إلا أن الخطأ عند معاوية أكثر من الخطأ عند علي، كما حقق هذا شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (منهاج السنة).

وخلاصة ما قال: كيف يقال هذا في الشام وعلي ومن معه أفضل من معاوية ومن معه ولم يكونوا في الشام؟

وكذلك ما يرويه بعضهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أنشده منشد:

قد لسعت حية الهوى كبدي... فلا طبيب لها ولا راقي

إلا الحبيب الذي شغفت به... فعنده رقيتي وترياقي

وأن النبي صلى الله عليه وسلم تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه، فإنه كذب باتفاق أهل العلم بالحديث، وأكذب منه ما يرويه بعضهم أنه مزق ثوبه، وأن جبريل أخذ قطعة منه، فعلقها على العرش، فهذا وأمثاله مما يعرف أهل العلم والمعرفة برسول الله صلى الله عليه وسلم أنه من أظهر الأحاديث كذبا عليه صلى الله عليه وسلم.

و "الوَجد"، بعض الناس في عبارته يقول: "فلان موجود"، و"موجود" يقابل المعدوم ويقابل غير الموجود أي ليس موجودًا في هذا المكان، وأحيانًا يقال: لا يتواجد فلان، ويريد بها لفظ "موجود"، وهذا خطأ، لأن التواجد والوَجد أمر قلبي.

فقال هنا: أصاب النبي -صلى الله عليه وسلم- الوَجد، وارتعد -صلى الله عليه وسلم- حتى سقطت البردة، وهذا لا يصح عنه -صلى الله عليه وسلم-، لذا يتوارث الصوفية بردة، وأصل ثبوتها عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كذب، فكيف الاسناد إلى أحدهم؟

وكذلك ما يروونه عن عمر رضي الله عنه أنه قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر يتحدثان، وكنت كالزنجي بينهما، فهو كذب موضوع باتفاق أهل العلم بالحديث.

ويريد الصوفية بمثل هذا أن يصححوا الألفاظ التي لا معنى لها التي يتلفظون بها، ويقولون: إن النبي -صلى الله عليه وسلم- كان يتحدث مع أبي بكر بمثل هذه الألفاظ، وعمر على درجته لم يبلغ درجة أبي بكر لذا لم يفهمها، فكذلك ما نتكلم به من ألفاظ لا تُفهم، هي كتلك الألفاظ التي يتكلم بها النبي -صلى الله عليه وسلم- مع أبي بكر ولم يفهمها عمر، وهذا كذب كما تقدم.

فإذن ما ادعوه من الوجد ونسبوه إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- كذب، وما ادعوه من البردة كذب، وما ادعوا أن هناك كلامًا كان يتلفظ به رسول الله -صلى

الله عليه وسلم- يفهمه أبو بكر دون عمر، فهذا كذب، فهذه الأمور الثلاثة كلها مبنية على كذب وباطل.

والمقصود هاهنا أنه من يقر برسالته صلى الله عليه وسلم العامة في الظاهر مع أنه يعتقد في الباطن ما يناقض ذلك، فيكون منافقا، وهو يدعي في نفسه وأمثاله أنهم أولياء الله مع كفرهم في الباطن بما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، إما عنادا وإما جهلا.

فإذن الخلاصة: أن من يدعي في الظاهر خلاف الباطن فهو منافق، ومتابعة النبي -صلى الله عليه وسلم- تكون في الظاهر والباطن، وفي هذا إغلاق باب من أبواب الصوفية.

كما أن كثيرا من النصارى واليهود يعتقدون أنهم أولياء الله، وأن محمدا رسول الله، لكن يقولون: إنما أرسل إلى غير أهل الكتاب، وأنه لا يجب علينا اتباعه، لأنه أرسل إلينا رسلا قبله عليه الصلاة والسلام، فهؤلاء كلهم كفار مع أنهم يعتقدون في طائفتهم أنهم أولياء الله، وإنما أولياء الله سبحانه وتعالى الذين وصفهم بولايته بقوله تعالى: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون}.

وهذه الآية عظيمة للغاية في الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان.

ولابد في الايمان من أن يؤمن العبد بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ويؤمن بكل رسول أرسله الله، وكل كتاب أنزله الله، كما قال تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون * فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم}.

وقال تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين}.

وقال في أول السورة: {الم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون}.

فلابد في الايمان من أن يؤمن أن محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين، لا نبي بعده، وأن الله أرسله إلى جميع الثقلين الإنس والجن.

فكل من لم يؤمن بما جاء به فليس بمؤمن، فضلا عن أن يكون من أولياء الله المتقين.

ومن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض، فهو كافر ليس بمؤمن، كما قال الله تعالى: {إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون

نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا وأعتدنا للكافرين عذابا مهينا * والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم وكان الله غفورا رحيما}.

فلما آمنوا ببعض وكفروا ببعض قال: {أولئك هم الكافرون حقًا}، أراد أن يؤكد ذلك ويبين أنهم كفار حقًا ولا يُغتر بأنهم آمنوا ببعض، فكفرهم ببعض يستوجب كفرهم مطلقًا.

ومن الإيمان به الإيمان بأنه هو الواسطة بين الله وبين خلقه في تبليغ أمره ونهيه، ووعده ووعيده، وحلاله وحرامه، فالحلال ما أحله الله ورسوله، والحرام ما حرمه الله ورسوله، والدين ما شرعه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.
فمن اعتقد أن لأحد من الأولياء طريقا إلى الله من غير متابعة محمد صلى الله عليه وسلم فهو كافر من أولياء الشيطان.

وإذا قيل: هل النبي -صلى الله عليه وسلم- واسطة؟ يقال: فيه تفصيل، إن أريد لا يُعبد الله إلا بما شرع لنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهذا حق، ومن اعتقد غير ذلك فقد كفر، وإن أريد أنه واسطة بأن تصرف له العبادات من دون الله فهذا كفر بالإجماع كما بينه شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- كما في (مجموع الفتاوى).

وهو في هذا المقام واسطة بحيث لا يُعبد الله إلا بما شرع رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، وإذا ضُبط هذا الأصل فإنه يغلق بابًا عظيمًا من أبواب ضلال الصوفية.

وأما خلق الله تعالى للخلق، ورزقه إياهم، وإجابته لدعائهم، وهدايته لقلوبهم، ونصرهم على أعدائهم، وغير ذلك من جلب المنافع ودفع المضار، فهذا لله وحده، يفعله بما يشاء من الأسباب، لا يدخل في مثل هذا وساطة الرسل.

ولو بلغ الرجل من الزهد والعبادة والعلم ما بلغ، ولم يؤمن بجميع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فليس بمؤمن، ولا ولي لله تعالى، كالأحبار والرهبان من علماء اليهود والنصارى وعبادهم.

وكذلك المنتسبون إلى العلم والعبادة من المشركين، مشركي العرب والترك والهند، وغيرهم ممن كان من حكماء الهند والترك، وله علم أو زهد وعبادة في دينه، وليس مؤمنا بجميع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فهو كافر عدو لله، وإن ظن طائفة أنه ولي لله، كما كان حكماء الفرس والمجوس كفارا مجوسا.

فمن ترك الإيمان بشيء واحد مما جاء به محمد –صلى الله عليه وسلم– فهو كافر، وبهذا يُعلم أن الكفر غلّاب، وأن البدعة غلّابة، وأن الفسق غلّاب، فمن كان صالحًا في كل شيء، قوّامًا بالليل صوّامًا بالنهار، كثير الصدقات، إلا أنه كفر بشيء واحد مما جاء به النبي –صلى الله عليه وسلم– فإنه كافر، فالكفر غلّاب.

وكذلك البدعة، من كان سنيًا سلفيًا في كل شيء إلا في شيء واحد مما يستوجب التبديع كالقول بالخروج على السلطان، فإنه يكون مبتدعًا، أو أوّل صفة الاستواء فإنه يكون مبتدعًا، فالبدعة غلّابة، لذا بدّع أئمة السنة الحسن بن صالح، مع أنه لم يقع إلا في بدعة واحدة وهو القول بالخروج على السلطان الفاسق، فإذن البدعة غلّابة.

وكذلك الفسق، لو كان الرجل صالحًا في كل شيء، قوّامًا صوّامًا، كثير الصدقات، بارًا بوالديه واصلًا لأرحامه..، إلا أن عنده كبيرة واحدة، فإنه يكون فاسقًا، فالفسق غلّاب والبدعة غلّابة والكفر غلّاب.

وكذلك حكماء اليونان، مثل أرسطو وأمثاله، كانوا مشركين يعبدون الأصنام والكواكب وكان أرسطو قبل المسيح عليه السلام بثلاثمائة سنة، وكان وزيرا للاسكندر بن فيلبس المقدوني، وهو الذي يؤرخ به الروم واليونان، وتؤرخ له اليهود والنصارى.

وليس هذا هو ذا القرنين الذي ذكره الله في كتابه، كما يظن بعض الناس أن أرسطوا كان وزيرا لذي القرنين لما رأوا أن ذاك اسمه الاسكندر، وهذا قد يسمى الاسكندر، فظنوا أن هذا ذاك، كما يظنه ابن سينا وطائفة معه.

تاريخ الاسكندر هذا يظن بعض الناس أنه هو ذو القرنين، وسيبين شيخ الإسلام أنه ليس كذلك، وإنما هو متأخر بعد ذي القرنين وهو الذي بنى الإسكندرية وتُنسب إليه.

وقد أُرّخ به تاريخ قريب من التاريخ الميلادي، إلا أنه يختلف في أسماء الشهور وفي ابتداء السنة، فبينه وبين التاريخ الميلادي شهران من حيث الابتداء، وإلا هو قريب من التاريخ الميلادي، ويؤرخون به.

وليس الأمر كذلك، بل هذا الاسكندر المشرك – الذي قد كان أرسطو وزيره –متأخر عن ذاك، ولم يبن هذا السد، ولا وصل إلى بلاد يأجوج ومأجوج، وهو الاسكندر الذي كان أرسطو من وزرائه، يؤرخ له تاريخ الروم المعروف.

وفي أصناف المشركين، من مشركي العرب، ومشركي الهند، واليونان، وغيرهم، من له اجتهاد في العلم والزهد والعبادة، ولكن ليس يتبع للرسل، ولا مؤمن بما جاؤوا به، فلا يصدقهم فيما أخبروا به، ولا يطيعهم فيما أمروا، فهؤلاء ليسوا بمؤمنين، ولا أولياء لله، وهؤلاء تقترن بهم الشياطين وتنزل عليهم، فيكاشفون الناس ببعض الأمور، ولهم تصرفات خارقة من جنس السحر، وهم من جنس الكهان والسحرة الذين تتنزل عليهم الشياطين، قال الله تعالى: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفاك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون * والشعراء يتبعهم الغاون}.

هذه من الفروق بين كرامات الصالحين وخوارق العادات للسحرة والكهنة، وهو النظر في حال الرجل، وسيأتي في كلام شيخ الإسلام، فإن الشياطين تتنزل على كل أفّاك أثيم بخلاف الكرامات فإنها لا تكون في الأفّاك ولا الأثيم.

وينبغي أن يُعلم أن الكرامات من حيث الجملة قسمان، وقد قعّد ذلك شيخ الإسلام في كتابه (النبوات)، وذكره في (العقيدة الواسطية):

- القسم الأول: يرجع إلى القوة والتأثير.
- القسم الثاني: يرجع إلى العلوم والمكاشفات.

أما القوة والتأثير، فقد يكون للرجل قوة في أي شيء، كأصحاب الكهف صار لهم قوة بحيث إنهم ناموا هذه المدة الطويلة ولم يموتوا ولم يكونوا يأكلون ولا يشربون، ومع ذلك بقوا، فهذه كرامة بالقوة.

وقد يكون في الكشف كما حصل لأبي بكر الصديق لما أوصى عائشة بأخويها وأختيها على القول بأن الفراسة الدينية من الكرامات، وكما جاء عن عمر وصححه بعضهم وإن كان لا يصح، لما قال: يا سارية الجبل،..وعلى هذا فقِس.

وهؤلاء جميعهم الذين ينتسبون إلى المكاشفات وخوارق العادات إذا لم يكونوا متبعين للرسل، فلا بد أن يكذبوا وتكذبهم شياطينهم، ولابد أن يكون في أعمالهم ماهو إثم وفجور، مثل نوع من الشرك أو الظلم أو الفواحش أو الغلو أو البدع في العبادة.

ولهذا تنزلت عليهم الشياطين واقترنت بهم، فصاروا من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، قال الله تعالى: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين} وذكر الرحمن هو الذكر الذي بعث به رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل القرآن، فمن لم يؤمن بالقرآن، ويصدق خبره، ويعتقد وجوب أمره، فقد أعرض عنه، فيقيض له الشيطان فيقترن به.

قال تعالى: {وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون} وقال تعالى: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى}، فدل ذلك على أن ذكره هو آياته التي أنزلها..

وهذا استنباط مفيد، فإنه وضّح أن ذكره هو آيته، لأنه قال: {ومن أعرض عن ذكري فإنه له معيشة ضنكًا} إلى قوله: {كذلك أتتك آياتنا}، فالذكر هو الآيات.

..ولهذا لو ذكر الرجل الله سبحانه وتعالى دائما ليلا ونهارا مع غاية الزهد، وغاية العبادة مجتهدا في ذلك، ولم يكن متبعا لذكره الذي أنزله – وهو القرآن – كان من أولياء الشيطان، ولو طار في الهواء أو مشى على الماء، فإن الشيطان يحمله في الهواء وعلى الماء، وهذا مبسوط في غير هذا الموضع.

وسيرجع إليه شيخ الإسلام –رحمه الله–، فإذن وجود خوارق العادات عند الرجل ليس دليلًا على صلاحه.

ومن الناس من يكون فيه إيمان، وفيه شعبة من نفاق، كما جاء في الصحيحين عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أربع من كن فيه كان منافقا خالصا، ومن كانت فيه خصلة منهن، كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

وقد تقدم الكلام عن النفاق الأكبر والنفاق الأصغر.

وفي الصحيحين أيضا عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الايمان بضع وستون، أو بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا

الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الايمان» فبين النبي صلى الله عليه وسلم أنه من كان فيه خصلة من هذه الخصال ففيه خصلة من النفاق حتى يدعها.

وقد ثبت في الصحيحين أنه قال لأبي ذر وهو من خيار المؤمنين: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، فقال: يا رسول الله! أعلى كبر سني؟ قال: «نعم».

وثبت في الصحيح عنه أنه قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والنياحة على الميت، والاستسقاء بالنجوم».

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان».

وفي لفظ في صحيح مسلم: «وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم».

وذكر البخاري عن ابن أبي مليكة أنه قال: أدركت ثلاثين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه.

وقد قال الله تعالى: {وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله وليعلم المؤمنين * وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون}.

فقد كان هؤلاء إلى الكفر أقرب منهم للإيمان، فعلم أنهم مخلطون، وكفرهم أقوى، وغيرهم يكون مخلطا وإيمانه أقوى.

وإذا كان أولياء الله هم المؤمنون المتقون، فبحسب إيمان العبد وتقواه تكون ولايته لله تعالى..

وهذه قاعدة عظيمة، بحسب الإيمان تكون الولاية..

فمن كان أكمل إيمانا وتقوى، كان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله عز وجل، بحسب تفاضلهم في الايمان والتقوى، وكذلك يتفاضلون في عداوة الله، بحسب تفاضلهم في الكفر والنفاق، قال الله تعالى: {وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون} وقال تعالى: {في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضًا}، وقال تعالى: {إنما النسيء زيادة في الكفر} وقال تعالى: {والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم}.

فبين سبحانه الشخص الذي قد يكون فيه قسط من ولاية الله، بحسب إيمانه وتقواه، وقد يكون فيه قسط من عداوة الله، بحسب كفره ونفاقه.

إذن قد يجتمع بالرجل إيمان وكفر، ونفاق وإيمان، وهذا إذا كان الكفر كفرًا أصغر، والنفاق نفاقًا أصغر وعملي، فالمؤمن والمسلم قد يجتمع فيه الأمران، وقد يجتمع في الرجل الإيمان العام اللغوي والكفر الأكبر، كما حصل لكفار قريش في أحد القولين في تفسير قوله تعالى: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}، آمنوا بتوحيد الربوبية وأشركوا في توحيد الألوهية.

فصل:

وأولياء الله على طبقتين:...

لما ذكر -رحمه الله- فيما تقدم أنه قد يجتمع بالرجل النفاق والإيمان وتقدم الكلام عن هذا، ذكر في هذا الفصل أولياء الله، وذكر أن أولياء الله صنفان، الصنف الأول: السابق بالخيرات، وهو الذي يفعل الواجبات والمستحبات ويترك المحرمات والمكروهات، والصنف الثاني: المقتصد، وهو الذي يفعل الواجبات ويترك المحرمات، فالصنف الأول أرفع درجة من الصنف الثاني، وليس معنى أن الصنف الأول والصنف الثاني يفعل الواجبات ويترك المحرمات..إلخ، أنهم لا يقعون في المعاصي، قد يقعون لكنهم يفزعون إلى التوبة، أما لو وقعوا في كبيرة ولم يتوبوا فإنهم يكونون فساقًا كما تقدم بيان ضابط الفاسق.

فإذن لا يُشترط للولاية ألا يُتلبس بالمعصية، فقد يتلبس بالكبيرة لكنه يتوب، أما الصغائر فيتوب منها ولو لم يتب فإن الأعمال الصالحة تكفره، كما قال تعالى: {إن تجتنبوا كبائر ما تُنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم}، وقد حكى ابن عبدالبر الإجماع على أن الكبائر لا تُكفر بالأعمال الصالحة، وإنما تكفرها التوبة، هذا فيما يتعلق بفعل العبد، وقد بين في كتاب (التمهيد) أن فضل الله وعفوه واسع سبحانه، وقد يعفو عن عبده إلا أن الأعمال الصالحة لا تكفر، ومن الأدلة على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- قال: «الصلوات الخمس إلى الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة... »إلخ، ثم قال: «كفارة لما بينهن إذا لم تغشهن الكبائر»، فإذا كانت هذه الأعمال بهذه الدرجة العالية لا تكفر الكبائر فغيرها من باب أولى، لذا ما جاء من الأدلة من أن الأعمال الصالحة تكفّر فإنها مخصوصة بهذا الحديث.

فصل:

وأولياء الله على طبقتين: سابقون مقربون، وأصحاب يمين مقتصدون، ذكرهم الله في عدة مواضع من كتابه في أول سورة (الواقعة) وفي آخرها، وفي سورة (الانسان) و (المطففين)، وفي سورة (فاطر)، فإنه سبحانه وتعالى ذكر في (الواقعة) القيامة الكبرى في أولها، وذكر القيامة الصغرى في آخرها، فقال في أولها: {إذا وقعت الواقعة * ليس لوقعتها كاذبة * خافضة رافعة * إذا رجت الأرض رجا * وبست الجبال بسا * فكانت هباء منبثا * وكنتم أزواجا ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون * أولئك المقربون * في جنات النعيم * ثلة من الأولين * وقليل من الآخرين}.

فهذا تقسيم الناس إذا قامت القيامة الكبرى التي يجمع الله فيها الأولين والآخرين، كما وصف الله سبحانه ذلك في كتابه في غير موضع،

ذكر أن القيامة الكبرى هي القيامة المعروفة، وهو في أول السورة، ثم ذكر القيامة الصغرى أي الموت وهو في آخر السورة، وسيذكره في هذه الآيات.

ثم قال تعالى في آخر السورة: {فلولا} أي فهلا {إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين * فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم * وأما إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأما إن كان من المكذبين الضالين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم * إن هذا لهو حق اليقين * فسبح باسم ربك العظيم}.

وقال تعالى في سورة الإنسان: {إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا * إنا أعتدنا للكافرين سلاسل وأغلالا وسعيرا * إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا * يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا * ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا * إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا * إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا * فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا * وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا} الآيات.

وكذلك ذكر في سورة المطففين فقال: {كلا إن كتاب الفجار لفي سجين * وما أدراك ما سجين * كتاب مرقوم * ويل يومئذ للمكذبين * الذين يكذبون بيوم الدين * وما يكذب به إلا كل معتد أثيم * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين * كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون * كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون * ثم إنهم لصالوا الجحيم * ثم يقال هذا الذي كنتم به تكذبون * كلا إن كتاب الأبرار لفي عليين * وما أدراك ما عليون * كتاب مرقوم * يشهده المقربون * إن الأبرار لفي نعيم * على الأرائك ينظرون * تعرف في وجوههم نضرة النعيم * يسقون من رحيق مختوم * ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون * ومزاجه من تسنيم * عينا يشرب بها المقربون}.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من السلف، قالوا: هو يمزج لأصحاب اليمين مزجا، ويشرب بها المقربون صرفا،

أي أصحاب اليمين يشربونه مخلوطًا، أما المقربون يشربونه صافيًا، ثم سيذكر الشيخ -رحمه الله- أن المقربين وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات وتركوا

المحرمات والمكروهات لم يتوسّعوا في المباحات ولم يستعملوا المباحات إلا على وجه يستعينون به على طاعة الله، فرجعت أعمالهم إلى عبادة الله، فلما جعلوا أعمالهم صرفًا لله وخالصة لله أي كلها لله جازاهم الله بأن شربوا شرابًا صافيًا، أما أصحاب اليمين فهم دونهم، وقد خلطوا شيئًا من الدنيا غير المحرمة بما تقدم ذكره باقتصارهم على فعل الواجبات وترك المحرمات فكان جزاؤهم في الآخرة أن مُزج لهم جزاءً وفاقًا، أسأل الله بكرمه وبرحمته وفضله أن لا يكلنا إلى أنفسنا وأن يجعلنا من المقربين برحمته وهو أرحم الراحمين.

وهو كما قال تعالى: {يشرب بها}، ولم يقل يشرب منها، لأنه ضمن قوله: يشرب معنى يروى، فإن الشارب قد يشرب ولا يروى، فإذا قيل: يشرب منها، لم يدل على الري، فإذا قيل: يشرب بها، كان المعنى يروون بها، فالمقربون، يروون بها فلا يحتاجون معها إلى ما هو دونها، فلا يشربون معها غيرها، فلهذا يشربونها صرفا، بخلاف أصحاب اليمين فإنها مزجت لهم مزجا، وهو كما قال تعالى في سورة الانسان: {إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا * عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرا}.

فعباد الله هم المقربون المذكورون في تلك السورة، وهذا لأن الجزاء من جنس العمل في الخير والشر، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والأخرة، ومن ستر مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ومن سلك طريقا يلتمس فيه علما سهل الله به طريقا إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت

الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه». رواه مسلم في صحيحه.

جزاءً وفاقًا، نفس فنفس الله عنه.

وقال صلى الله عليه وسلم: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء» قال الترمذي: حديث صحيح.

إذن جزاءً وفاقًا، رحموا الناس فرحمهم الله.

وفي الحديث الذي في السنن يقول الله تعالى: «أنا الرحمن، خلقت الرحم، وشققت لها اسما من اسمي، فمن وصلها وصلته، ومن قطعها بتته»، وقال: «ومن وصلها وصله الله، ومن قطعها قطعه الله»، ومثل هذا كثير.
وأولياء الله تعالى نوعان: مقربون، وأصحاب يمين، كما تقدم، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم عمل القسمين في حديث الأولياء فقال: «يقول الله تعالى: من عادى لي وليا فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلي عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولايزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها».

إذن «بمثل ما افترضته عليه»، هؤلاء هم أصحاب اليمين الذين اقتصروا على هذا، وهم المقتصدون، ثم في تتمة الحديث: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه.. »، هؤلاء هم المقربون وهم السابقون بالخيرات.

فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إلى الله بالفرائض، يفعلون ما أوجب الله عليهم، ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم المندوبات، ولا الكف عن فضول المباحات.

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات، والمكروهات، فلما تقربوا إليه بجميع ما يقدرون عليه من محبوباتهم أحبهم الله حبا تاما، كما قال تعالى: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه»، يعني الحب المطلق كما في قوله تعالى: {اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين} أي أنعم عليهم الإنعام المطلق التام المذكور في قوله تعالى: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا}.

فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات يتقربون بها إلى الله عز وجل، فكانت أعمالهم كلها عبادات لله، فشربوا صرفا، كما عملوا له صرفا.

والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم، فلا يعاقبون عليه، ولا يثابون عليه، فلم يشربوا صرفا، بل مزج لهم من شراب المقربين بحسب ما مزجوه في الدنيا.

ومما ينبغي أن يُعلم أنه لا يصح التقرّب إلى الله بالمباح لذاته، والتقرب إلى الله بالمباح لذاته بدعة، بيّن هذا ابن تيمية كما في (مجموع الفتاوى)، وابن القيم في كتابه (أعلام الموقعين)، بل والسبكي فيما نقله عنه ابن حجر الهيتمي في فتاواه.

وإنما يُتقرب إلى الله بالمباح لغيره من باب الوسائل، أما التقرب إلى الله بالمباح لذاته فهو بدعة، ويدل لذلك ما في البخاري عن معاذ –رضي الله عنه– أنه قال: وإني لأحتسب على الله نومتي كما أحتسب عليه قومتي. إذن لا يُتقرب إلى الله بالمباح إلا لغيره، أما التقرب به لذاته فهو بدعة.

وقريب مما ذكر شيخ الإسلام مبحث آخر: وهو الفرق بين الملك والخليفة، فإن هناك فرقًا بين الملك والخليفة، والفرق بينهما حققه شيخ الإسلام –رحمه الله– في رسالة في الخلافة أو الملك في أواخر مجموع الفتاوى، وذكر –رحمه الله– أن الخليفة قد يُطلق على الملك، إلا أن بينهما فرقًا إذا اجتمعا، وذلك أن الخليفة الذي يكون خلافته على وجه المدح هو الذي لا يستعمل الملك إلا في نصرة الدين، ولا يستفيد من المباحات في ملكه، وإن كان جائزًا، وهذه طريقة أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، أما من استفاد من الملك في المباحات فهو ليس آثمًا لكنه أقلّ درجة من هؤلاء، وهي طريقة معاوية –رضي الله عنه–، ومعاوية أفضل ملوك الإسلام بالإجماع، حكى الإجماع شيخ الإسلام ابن تيمية كما في (مجموع الفتاوى)، إلا أن الملك عند الاقتران بالخليفة في اللفظ أقل درجة من الخليفة ، لأن الخليفة لا يستفيد من الحكم في المباحات، وهذا بخلاف الملك.

وقد عدّ الثوري والشافعي عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين، وليس هذا قدحًا في معاوية –رضي الله عنه–، فإنه قد يكون عند التابعي عمل ليس عند

الصحابي لكن الصحابي أفضل من التابعي، كما قد يوجد عند التابعين من يصوم يومًا ويفطر يومًا ويقوم أكثر الليل، وقد لا يوجد هذا في بعض الصحابة، فذاك الأعرابي لما قال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، ومع ذلك هذا الصحابي الأعرابي أفضل من ذاك التابعي، فالفضل شيء وكثرة العمل شيء، فعمر بن عبدالعزيز –رضي الله عنه– عنده من العمل في الخلافة ما ليس عند معاوية، وإن كان معاوية أفضل من عمر بن عبدالعزيز، وكما قال ابن المبارك: لغبار في أنف معاوية مع رسول الله خير من عمر بن عبدالعزيز، بل أجمع السلف على أن الصحابة أفضل هذه الأمة فردًا وجنسًا، حكى الإجماع شيخ الإسلام –رحمه الله–، واستدل بأثر ابن مسعود الذي ثبت عند الدارمي أنه قال: إن الله اطّلع على قلوب العباد فرأى خيرها قلب محمد –صلى الله عليه وسلم– فاصطفاه لرسالته، ثم اطّلع على قلوب العباد فرأى خيرها قلوب أصحابه فاصطفاهم لصحبة محمد –صلى الله علهي وسلم–، قال: وفي هذا أن السلف مجمعون على أن الصحابة أفضل هذه الأمة فردًا وجنسًا، وإن كان حصل خلاف بعد ذلك إلا أن السلف الأوائل مجمعون على هذا، بل إن ذاك الأعرابي الذي قال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص..، أفضل من عمر بن عبدالعزيز، بل أفضل من مالك والشافعي وأحمد، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، أسأل الله بمحبتنا لصحابة رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أن يجمعنا بهم في الفردوس الأعلى برحمته وفضله وهو أرحم الراحمين.

فالمقصود أن الفرق بين الملك والخليفة ما تقدم ذكره في الاستفادة بالمباحات في الولاية.

ونظير هذا انقسام الأنبياء عليهم السلام إلى رسول عبد، ونبي ملك، وقد خير الله سبحانه محمدًا صلى الله عليه وسلم، وبين أن يكون عبدا رسولا وبين أن يكون نبيا ملكا، فاختار أن يكون عبدا رسولا، فالنبي الملك، مثل داود وسليمان ونحوهما عليهم الصلاة والسلام، قال الله تعالى في قصة سليمان: {قال رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب * فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب} أي: حيث أراد، {والشياطين كل بناء وغواص * وآخرين مقرنين في الأصفاد * هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب}.

أي: أعط من شئت، واحرم من شئت، لا حساب عليك، فالنبي الملك، يفعل ما فرض الله عليه، ويترك ما حرم الله عليه، ويتصرف في الولاية والمال بما يحبه ويختار، من غير إثم عليه.

لأجل هذا صار ملكًا، وهكذا فيمن بعد الأنبياء، من تصرف في الولاية في غير ما حرم الله وفي المباح فإنه يكون ملكًا صالحًا، وإن تصرف في الحرام فإنه يكون ملكًا عاصيًا.

وأما العبد الرسول، فلا يعطي أحدا إلا بأمر ربه، لا يعطي من يشاء، ويحرم من يشاء، بل يعطي من أمره ربه بإعطائه، ويوالي من أمره الله بولايته، فأعماله كلها عبادات لله تعالى، كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إني والله لا أعطي أحدا، ولا أمنع أحدا، إنما أنا قاسم أضع حيث أمرت».

فإذن النبي –صلى الله عليه وسلم– لم يستفد من الولاية في شيء من المباحات، فهو أرفع درجة من سليمان –عليه السلام–، كما أن الخلفاء الراشدين أرفع درجة من معاوية –رضي الله عنه–.

ولهذا يضيف الله الأموال الشرعية إلى الله والرسول، كقوله تعالى: {يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول} وقوله تعالى: {ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول} وقوله تعالى: {واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه وللرسول}.

ولهذا كان أظهر أقوال العلماء، أن هذه الأموال تصرف فيما يحبه الله ورسوله بحسب اجتهاد ولي الأمر، كما هو مذهب مالك وغيره من السلف، ويذكر هذا رواية عن أحمد.

وقد قيل في الخمس: إنه يقسم على خمسة، كقول الشافعي، وأحمد في المعروف عنه، وقيل: على ثلاثة، كقول أبي حنيفة رحمه الله.

والمقصود هاهنا، أن العبد الرسول، هو أفضل من النبي الملك، كما أن إبراهيم وموسى وعيسى ومحمدا صلى الله تعالى عليهم وسلم، أفضل من يوسف، وداود، وسليمان عليهم السلام، كما أن المقربين السابقين، أفضل من الأبرار أصحاب اليمين، الذين ليسوا بمقربين سابقين، فمن أدى ما أوجب الله عليه، وفعل من المباحات ما يحبه، فهو من هؤلاء، ومن كان إنما يفعل ما يحبه الله ويرضاه، ويقصد أن يستعين بما أبيح له على ما أمره الله به، فهو من أولئك.

فصل:

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى أولياءه المقتصدين والسابقين في سورة (فاطر) في قوله تعالى: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير * جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير * وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور * الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب}.

لكن هذه الاصناف الثلاثة في هذه الآية، هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم خاصة، كما قال الله تعالى: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير}.

وأمة محمد صلى الله عليه وسلم، هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمم المتقدمة، وليس ذلك مختصا بحفاظ القرآن، بل كل من آمن بالقرآن فهو من هؤلاء، وقسمهم إلى ظالم لنفسه، ومقتصد، وسابق بالخيرات، بخلاف الآيات التي في (الواقعة) (والمطففين) (والانفطار) فإنه دخل فيها جميع الأمم المتقدمة، كافرهم ومؤمنهم، وهذا التقسيم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، فالظالم لنفسه: أصحاب الذنوب المصرون عليها.

والمقتصد: المؤدي للفرائض، المجتنب للمحارم، والسابق للخيرات: هو المؤدي للفرائض، والنوافل، كما في تلك الآيات.

فصل:

ومن تاب من ذنبه، أي ذنب كان، فتوبته صحيحة، لم يخرج بذلك عن قوله تعالى: {جنات عدن يدخلونها}، يخبر بذلك عن السابقين والمقتصدين كما في

قوله تعالى: {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين * الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين * والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون * أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين}.

وهذه قاعدة مهمة، ليس من شرط الولاية عدم الوقوع في الذنب.

وقوله: {جنات عدن يدخلونها} مما يستدل به أهل السنة، على أنه لا يخلد في النار أحد من أهل التوحيد.
وأما دخول كثير من أهل الكبائر النار، فهذا مما تواترت به السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم، كما تواترت بخروجهم من النار، وشفاعة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر، وإخراج من يخرج من النار بشفاعته صلى الله عليه وسلم، وشفاعة غيره.

بل ذكر ابن تيمية –رحمه الله– كما في (مجموع الفتاوى) الإجماع على هذا، وسيأتي كلام آخر.

فمن قال: إن أهل الكبائر مخلدون في النار، وتأول الآية على أن السابقين، هم الذين يدخلونها، وأن المقتصد والظالم لنفسه لا يدخلها، كما تأوله من تأوله من المعتزلة، فهو مقابل بتأويل المرجئة، الذين لا يقطعون بدخول أحد من أهل

الكبائر النار، ويزعمون أن أهل الكبائر قد يدخل جميعهم الجنة بلا عذاب، وكلاهما مخالف للسنة المتواترة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولإجماع سلف الأمة وأئمتها.

أحاديث الشفاعة تنافي معتقد المرجئة والخوارج، فالخوارج معتقدهم أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، لكن لا يزيد ولا ينقص، وإذا ذهب بعضه ذهب كله، ويذهب بالكبائر، ومنهم من قال: يذهب بالصغائر، وهذا ملخص ما قرره أبو عبيد القاسم بن سلام عن الخوارج، وذكر أنهم يقولون: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد، وذكره الحافظ ابن حجر في شرحه على البخاري.

فإذن أحاديث الشفاعة تنافي معتقد الخوارج، فهؤلاء عندهم ذنوب أوجبت الدخول في النار ثم خرجوا منها، فإذن هم مسلمون، وهذا يتنافى مع مذهب الخوارج، ويقابل الخوارج المرجئة، والمرجئة مجمعون على أن أعمال الجوارح ليست من الإيمان، ثم هم متفاوتون، فمنهم من يرى أن الإيمان هو الكلمة كالكرامية، ومنهم من يعتقد أن الإيمان هو المعرفة كما هو قول الجهمية وهو قول لأبي الحسن الأشعري وقول عند الأشاعرة، ومنهم من يعتقد أن الإيمان هو التصديق وهو القول المشهور عند الأشاعرة وهو قول لأبي الحسن الأشعري، ومنهم من يعتقد أن الإيمان قول واعتقاد وهم مرجئة الفقهاء، كحمّاد بن سليمان، وأبي حنيفة..وغيرهم من أهل الكوفة، فهؤلاء أجمعوا على أن أعمال الجوارح ليست من الإيمان، وأحاديث الشفاعة رد عليهم، وذلك أن هؤلاء وقعوا في معاصي، لأنهم يقولون: الإيمان إذا ذهب بعضه ذهب كله، فإذن لا يتأثر بالمعاصي

حتى يبقى كله، فيقال: هؤلاء وقعوا في معاصي أي ذهب بعض الإيمان، ثم خرجوا من النار ولا زالوا مسلمين مؤمنين.

فإذن أحاديث الشفاعة رد على هاتين الطائفتين وقد أجمع عليها أهل السنة وأجمع عليها سلف هذه الأمة، وسبب ضلال الخوارج ومنهم المعتزلة الذين يقولون بالمنزلة بين المنزلتين وحقيقة قولهم يرجع إلى قول الخوارج، وسبب ضلال المرجئة بجميع طوائفهم: أن الإيمان جزء واحد لا يتجزأ، ذكر هذا شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– كما في (مجموع الفتاوى) في مواضع كما في المجلد السابع.

ومن دقيق ما ذكر شيخ الإسلام عن الإمام أحمد أن له ردًا قويًا على المرجئة، فإن الإمام أحمد قال: أنتم أيها المرجئة متناقضون، –وخطابه لمرجئة الفقهاء– تقولون: الإيمان جزء واحد لا يتجزّأ، ثم تقولون الإيمان هو القول والاعتقاد، فأنتم أحد أمرين، إما أن تقولوا بالتجزؤ، وهو أنه قول واعتقاد فيلزم منه أن تقولوا بالأدلة التي جاءت بأن أعمال الجوارح داخلة في الإيمان، أو أن تدعوا هذا التجزؤ وترجعوا إلى قول الجهمية وهو أن الإيمان في القلب دون اللسان، وقد أثنى ابن تيمية على هذا الرد للإمام أحمد، وقال: وقد كان خبيرًا بأهل البدع وبمداخلهم، – رحمه الله ورحم جميع علماء المسلمين–.

وأنبه إلى فائدة دقيقة: وهي أن السلف إذا تكلموا في باب الإيمان وقالوا: "المرجئة"، فهم إنما يريدون مرجئة الفقهاء ولا يريدون الجهمية، لذا يقولون: قالت الجهمية والمرجئة، والجهمية هم الذين يقولون إن الإيمان هو المعرفة على ما تقدم ذكره، وقد أفاد هذا شيخ الإسلام ابن تيمية كما في المجلد السابع من (مجموع الفتاوى).

وقد دل على فساد قول الطائفتين قول الله سبحانه تعالى في آيتين من كتابه: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} فأخبر تعالى أنه لا يغفر الشرك، وأخبر أنه يغفر ما دونه لمن يشاء، ولا يجوز أن يراد بذلك التائب، كما يقوله من يقوله من المعتزلة، لأن الشرك يغفره الله لمن تاب، وما دون الشرك، يغفره الله أيضا للتائب، فلا تعلق بالمشيئة، ولهذا لما ذكر المغفرة للتائبين، قال الله تعالى: {قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم}.

فهاهنا عمم المغفرة وأطلقها، فإن الله يغفر للعبد أي ذنب تاب منه، فمن تاب من الشرك غفر الله له، ومن تاب من الكبائر غفر الله له، وأي ذنب تاب العبد منه غفر الله له.

ففي آية التوبة، عمم وأطلق، وفي تلك الآية خصص وعلق، فخص الشرك بأنه لا يغفره، وعلق ما سواه على مشيئته، ونبه في الشرك على ما هو أعظم منه كالتعطيل للخالق، وهذا يدل على فساد قول من يجزم بالمغفرة لكل مذنب، أو يجوز أن لا يعذب بذنب، فإنه لو كان كذلك لما ذكر أنه يغفر للبعض دون البعض، ولو كان كل ظالم لنفسه مغفورا له، بلا توبة ولا حسنات ماحية، لم يعلق ذلك بالمشيئة.

وقوله تعالى: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} دليل على أنه يغفر للبعض دون البعض، فبطل النفي والعفو العام.

وهذا رد قوي، فقوله: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، جعل الذنوب نوعين، ذنب لا يُغفر، وذنب يغفره إن شاء، وهذا فيه رد على الخوارج لأنهم يقولون إن الذنوب واحدة وكلها لا تُغفر، ورد على المرجئة

الذين يقولون إن الذنب لا يضر، ولو كان كذلك لما قال الله –عز وجل–: {ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء}، أي يغفر لبعضهم دون بعض، فهذا رد على الطائفتين.

فصل

وإذا كان أولياء الله عز وجل، هم المؤمنون المتقون، والناس يتفاضلون في الإيمان والتقوى، فهم متفاضلون في ولاية الله بحسب ذلك، كما أنهم لما كانوا متفاضلين في الكفر والنفاق، كانوا متفاضلين في عداوة الله بحسب ذلك.

وهذه قاعدة، أن أهل الولاية يتفاضلون في ولايتهم.

وأصل الإيمان والتقوى: الايمان برسل الله، وجماع ذلك: الايمان بخاتم الرسل محمد صلى الله عليه وسلم، فالإيمان به يتضمن الايمان بجميع كتب الله ورسله.
وأصل الكفر والنفاق، هو الكفر بالرسل وما جاؤوا به، فإن هذا هو الكفر الذي يستحق صاحبه العذاب في الآخرة، فإن الله تعالى أخبر في كتابه، أنه لا يعذب أحدا إلا بعد بلوغ الرسالة.
قال الله تعالى: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا} وقال تعالى: {إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا * ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليما * رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}.

وقال تعالى عن أهل النار: {كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير}.

فأخبر أنه كلما ألقي في النار فوج أقروا بأنهم جاءهم النذير فكذبوه، فدل ذلك على أنه لا يلقى فيها إلا من كذب النذير.

وصدق، وهذا استنباط دقيق، -رحمه الله تعالى-.

وقال الله تعالى في خطابه لإبليس: {لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين} فأخبر أنه يملؤها بإبليس ومن اتبعه، فإذا ملئت بهم لم يدخلها غيرهم.

فعُلم أنه لا يدخل النار إلا من اتبع إبليس، وهذا يدل على أنه لا يدخلها من لا ذنب له، فإنه ممن لم يتبع الشيطان لم يكن مذنبا، وما تقدم يدل على أنه لا يدخلها إلا من قامت عليه الحجة بالرسل.

فإذن العذاب في الآخرة لا يكون إلا لمن قامت عليه الحجة، {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا}، والوصف في الدنيا لا يكون إلا لمن قامت عليه الحجة وكان عنده علم، قال سبحانه: {ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم إنك إذن لمن الظالمين}، مفهوم المخالفة: إن اتبعت بجهل فلست من الظالمين.

وقوله: {ولئن اتبعت أهواءهم} نكرة مضافة إلى معرفة وهو الضمير فتفيد العموم، أي في جميع الدين، فآية الإسراء: {وما كنا معذبين حتى نبعث رسولًا}،

هذا في العذاب، وآية البقرة في الوصف في الدنيا، فلا يقال فاسق أو كافر إلا بعد قيام الحجة.

لكن ينبغي في هذا البحث أن يُفرق بين المفرط وغير المفرط، وقد ذكر ابن عبد البر في كتابه (التمهيد)، والقرافي في كتابه (الفروق)، وابن لحام في قواعده، أن هناك فرقًا بين المفرط وغيره، والمفرط عليه وزران كما قرره القرافي، الوزر الأول: وزر التفريط، والثاني: وزر الوقوع في الإثم، فلا بد من التفريق بين المفرط وغير المفرط.

والمراد بالمفرط هو الذي يظن أن هناك حقًا ولم يتبعه، أو يقول: لا أسأل وأخشى أن أسأل فيكون الحق خلاف ذلك، أما من ليس في نفسه إلا أن هذا هو الحق ولأجل هذا لم يسأل، إما اغترارًا بعلمائه أو لغير ذلك، فإن مثل هذا لا يقال إنه مفرط.

وأيضًا ينبغي أن يُعلم أن هناك أمرًا لا يُعذر فيه أحد بالجهل، وهو الاستهزاء وما هو أشد منه وهو السب، وقد ذكر ابن تيمية في كتابه (الصارم) أن السب أشد من الاستهزاء، وأن المستهزئين كفروا بقولهم، قال الله عز وجل: {قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم}، وقالوا قبل ذلك: {إنما كنا نخوض ونلعب}، قال ابن تيمية: لم يكذبهم الله في ذلك، فدل على أنهم صادقون، كانوا يخوضون ويلعبون فلم يُعذروا، فلذلك في السب لا يُعذر أحد بجهله، -وقد أشار لذلك ابن تيمية في (الصارم المسلول)، وابن حزم في (الفصل)، وسليمان بن عبدالله في (تيسير العزيز الحميد)، والسبب-والله أعلم- أن من صرف عبادة لغير الله أو فعل غير ذلك جاهلًا بلا تفريط يظن أنه يفعل

خيرًا أو يظن أنه لا يفعل شرًا، أما السب والاستهزاء فلا يأتي مع تعظيم الله، لأنه ليس فيه شبهة التنزيه، أما بقية الأمور فإن فيها شبهة التنزيه، المؤول عنده شبهة التنزيه..إلى غير ذلك، وهذا فرق دقيق ينبغي أن يُتنبه إليه.

ثم أنبه إلى تنبيه مهم في هذه المسألة: فرق بين الكافر الأصلي ومن عرض له الكفر، فالكافر الأصلي كافر ولو لم تبلغه الرسالة، فهو على أصله وعلى يقين وما استيقن منه وهو الكفر، والدليل على ذلك قوله تعالى: {وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله}، سماه مشركًا قبل أن يسمع كلام الله، وهذا في الكافر الأصلي، وإنما البحث في المسلم الذي عرض له الشرك ويظن أن هذا الشرك لا يخرجه من الإسلام.

وما تقدم ذكره قد ذهب إلى تقرير مثل هذا شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله– في مواضع كثيرة لا تكاد أن تُحصى ولا تُجمع، وقرره شيخنا العلامة محمد بن صالح العثيمين –رحمه الله– في مواضيع كثيرة، وقرره شيخنا ابن باز في بعض المواضع دون بعض.

ويهمني في هذه المسألة أن يُعلم أن المسألة مما يسوغ الخلاف فيها، وقد نصّ على ذلك جمع من أهل العلم، بل نصّوا على أن مسألة العذر بالجهل من المسائل الفقهية، لذا أكثر ما تُبحث في كتب الفقه وكتب أصول الفقه عند الكلام عن العوارض الأهلية، ونص شيخنا ابن عثيمين –رحمه الله– في أكثر من موضع من فتاواه، قال: البحث في مسألة العذر بالجهل من جنس البحث في المسائل الفقهية والخلاف فيها سائغ كبقية المسائل الفقهية.

وهذا أهم ما يهم في هذه المسألة وأن يُعلم أن الخلاف سائغ، فمن أراد أن يختار أحد القولين فله أن يفعل إما تقليدًا لمن يثق به أو اتباعًا للدليل الذي ظهر له، والمصيب له أجران والمخطئ له أجر واحد، وألا نجعل للشيطان مدخلًا بين أهل السنة فيفرق صفوفهم بمثل هذه المسألة، وقد نص شيخنا ابن باز في تعليقه على (تيسير العزيز الحميد)، وقدم للكتاب شيخنا العلامة صالح الفوزان، نص شيخنا ابن باز على أن المسألة خلافية بين أهل العلم، وضرب على ذلك بأمثلة كقول: يا مرسي، يا فلان..، قال يدعو غير الله، ثم ذكر أن في التكفير بمثل هذا قولين لأهل العلم، ونص على ذلك شيخنا ابن عثيمين في مواضع من فتاواه، بل نص على أنها من المسائل الفقهية، وذكر ذلك العلامة مقبل الوادعي -رحمه الله-، وذكره شيخنا العلامة عبدالمحسن العباد في بعض رسائله، ونص على أن المسألة خلافية بين أهل السنة، وبما أنها خلافية فهي كغيرها وينبغي أن يكون الرجل عاقلًا وأن يزن الأمور بميزان العلم، ولا يُدخل على أهل السنة بأمثال هذه المسألة فتُفرق صفوفهم.

وقد رأيت بعض الناس أهلكته هذه المسألة حتى ذهبت الأيام وأضاع علمه وأهدر جهده في أمثال هذه المسألة، حتى نُسي الرجل ولم يبق له ذكر، وإنما إذا تبنى الرجل قولًا بينه بدليله فإذا سمع غيره قوله فلهم أن يختاروا القول بدليله ولهم أن يخالفوه كغيرها من المسائل الخلافية خلافًا معتبرًا بين أهل السنة.

فصل:

ومن الناس من يؤمن بالرسل إيمانا عامًا مجملًا، وأما الايمان المفصل، فيكون قد بلغه كثير مما جاءت به الرسل فآمن به إيمانًا مفصلًا، ولم يبلغه بعض ذلك، فيؤمن بما بلغه عن الرسل، وما لم يبلغه لم يعرفه، ولو بلغه لآمن به، لكن آمن بما جاءت به الرسل إيمانا مجملا، فهذا إذا عمل بما علم أن الله أمره به مع إيمانه وتقواه، فهو من أولياء الله تعالى، له من ولاية الله بحسب إيمانه وتقواه.

وما من لم تقم عليه الحجة به، فإن الله تعالى لم يكلفه معرفته، ولا الإيمان المفصل به، فلا يعذبه على تركه، لكن يفوته من كمال ولاية الله بحسب ما فاته من ذلك، فمن علم بما جاءت به الرسل وآمن به إيمانا مفصلا وعمل به، فهو أكمل إيمانا وولاية لله ممن لم يعلم ذلك مفصلا، ولم يعمل به، وكلاهما ولي الله تعالى.

وهذه قاعدة عظيمة في الغيبيات كلها، "من علم ما جاء مفصّلًا وجب عليه أن يؤمن به مفصّلًا، ومن علم ما جاء مجملًا وجب أن يؤمن به مجملًا". ذكرها ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى

والجنة درجات متفاضلة تفاضلا عظيما، وأولياء الله المؤمنون المتقون في تلك الدرجات بحسب إيمانهم وتقواهم.

قال الله تبارك وتعالى: {من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا * ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكورا * كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك

وما كان عطاء ربك محظورا * انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا}.

فبين الله سبحانه وتعالى، أنه يمد من يريد الدنيا ومن يريد الآخرة من عطائه، وأن عطاءه ما كان محظورا عن بر ولا فاجر، ثم قال تعالى: {انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا}، فبين الله سبحانه، أن أهل الآخرة يتفاضلون فيها أكثر مما يتفاضل الناس في الدنيا، وأن درجاتها أكبر من درجات الدنيا، وقد بين تفاضل أنبيائه عليهم السلام كتفاضل سائر عباده المؤمنين، فقال الله تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات} وقال تعالى: {ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا}.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا وكذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان».

الشاهد قوله: «وفي كلٍ خير»، فهم متفاضلون وكلهم فيهم خير، وقوله: «ولكن قل قدر الله»، يصح بالتشديد «قدَّر الله»، ويصح بالفتح «قَدَر الله».

وهذا يدل على أن الجنة متفاضلة وأن الأنبياء متفاضلون وأن المؤمنين متفاضلون، بل إن أسماء الله وصفاته متفاضلة عند أهل السنة، لذا في صحيح مسلم من

حديث ابن عمر: «أحب الأسماء إلى الله "عبدالله" و "عبدالرحمن"»، فهو أحب من اسم "عبدالكريم"..إلخ، فدل على أن أسماءه متفاضلة.

وأيضًا في الصحيح قال: «سبقت رحمتي غضبي»، فدل على أن الرحمة أفضل من صفة الغضب، وقد قرر ابن تيمية أن هذا قول أهل السنة، وقد أخطأ بعضهم كابن جرير الطبري، وهذه من نوادر أخطائه في باب الاعتقاد -رحمه الله-، وأخطأ ابن حبان وليس غريبًا عليه فإن عنده أخطاء وتأويلات في باب الاعتقاد، وأخطأ أبو الحسن الأشعري في أحد القولين وهذا ليس غريبًا عليه.

وفي الصحيحين عن أبي هريرة، وعمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «: إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر».

وقد قال الله تعالى: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما * درجات منه ومغفرة ورحمة وكان الله غفورا رحيما}، وقال تعالى: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى}، وقال تعالى: وقال تعالى: {أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين * الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم

مقيم * خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم} وقال تعالى: {أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربه قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب}، وقال تعالى: {يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير}.

فصل:

وإذا كان العبد لا يكون وليا لله إلا إذا كان مؤمنا تقيا، لقوله تعالى: {ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون}.

إذن شرط الولاية أن يكون الرجل متقيًا لله، إما من المقتصدين أو السابقين بالخيرات، وهذا فيه رد على الصوفية الذين جعلوا أهل الفسق والفجور، بل جعلوا المجانين أولياء لله كما سيأتي من كلام الشيخ –رحمه الله–.

وفي صحيح البخاري الحديث المشهور، وقد تقدم يقول الله تبارك وتعالى فيه: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه» ولا يكون مؤمنا تقيا حتى يتقرب إلى الله بالفرائض، فيكون من الأبرار أهل اليمين، ثم بعد ذلك لا يزال يتقرب إليه بالنوافل، حتى يكون من السابقين المقربين، فمعلوم أن أحدا من الكفار والمنافقين لا يكون وليا لله، وكذلك من لا يصح إيمانه وعباداته وإن قدر أنه لا إثم عليه مثل أطفال الكفار، ومن لم تبلغه الدعوة ونحوهم، وإن قيل: أنهم لا يعذبون حتى يرسل الله إليهم رسولًا، فلا يكونون من أولياء الله، إذ لم يكونوا من المؤمنين المتقين، فمن لم يتقرب إلى الله لا بفعل الحسنات ولا بترك السيئات، لم يكن من أولياء الله.

وهذا تنبيه مفيد، من لم يُعذب لعذر فليس معنى هذا أنه مُثاب، فالطفل والمجنون..إلخ، معذورون، والجاهل معذور، لكن ليس معنى هذا أنه مُثاب.

وكذلك المجانين والأطفال، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يرفع القلم عن ثلاثة: عن المجنون حتى يفيق، وعن الصبي حتى يحتلم، وعن النائم حتى يستيقظ».

وهذا الحديث قد رواه أهل السنن من حديث علي وعائشة رضي الله عنهما، واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول.

ليس المراد من قوله: "واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول" أنه ثابت وصحيح وأنهم اتفقوا على ذلك، وإنما المراد: تلقوا معناه بالقبول، ومعناه ثابت والعلماء متواردون عليه، وثبت موقوفًا، قال علي وهو يخاطب عمر: أما علمت أن القلم رُفع عن ثلاثة. علقه البخاري، وحديث عائشة صححه جماعة من أهل العلم والظاهر صحته، بخلاف حديث علي الصواب وقفه وأنه من كلام علي كما علقه البخاري.

فالمقصود أن قول شيخ الإسلام "واتفق أهل المعرفة على تلقيه بالقبول" أي على تلقي معناه.

لكن الصبي المميز تصح عباداته ويثاب عليها عند جمهور العلماء، وأما المجنون الذي رفع عنه القلم، فلا يصح شيء من عباداته باتفاق العلماء، ولا يصح منه إيمان ولا كفر ولا صلاة ولا غير ذلك من العبادات، بل لا يصلح هو عند عامة

العقلاء لأمور الدنيا كالتجارة والصناعة، فلا يصلح أن يكون بزازا ولا عطارا ولا حدادا ولا تاجرًا، ولا تصح عقوده باتفاق العلماء، فلا يصح بيعه ولا شراؤه ولا نكاحه ولا طلاقه ولا إقراره ولا شهادته، ولا غير ذلك من أقواله، بل أقواله كلها لغو لا يتعلق بها حكم شرعي، ولا ثواب ولا عقاب، بخلاف الصبي المميز فإن له أقوالا معتبرة في مواضع بالنص والإجماع، وفي مواضع فيها نزاع.

وإذا كان المجنون لا يصح منه الإيمان ولا التقوى، ولا التقرب إلى الله بالفرائض والنوافل، وامتنع أن يكون وليا لله، فلا يجوز لأحد أن يعتقد أنه ولي لله، لا سيما أن تكون حجته على ذلك، إما مكاشفة سمعها منه، أو نوع من تصرف، مثل أن يراه قد أشار إلى واحد سمعها منه، أو نوع من تصرف مثل أن يراه قد أشار إلى واحد فمات أو صرع، فإنه قد عُلم أن الكفار والمنافقين من المشركين وأهل الكتاب، لهم مكاشفات وتصرفات شيطانية، كما للكهان والسحرة والمشركين، وأهل الكتاب، فلا يجوز لأحد أن يستدل بمجرد ذلك على كون الشخص وليا لله، وإن لم يعلم منه ما يناقض ولاية الله، فكيف إذا علم منه ما يناقض ولاية الله، مثل أن يعلم أنه لا يعتقد وجوب اتباع النبي صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا، بل لا يعتقد أنه يتبع الشرع الظاهر دون الحقيقة الباطنة، أو يعتقد أن لأولياء الله طريقا إلى الله غير طريق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، أو يقول: إن الأنبياء ضيقوا الطريق، أو هم قدوة على العامة دون الخاصة ونحو ذلك مما يقوله بعض من يدعي الولاية..

هنا أجمل ثم سيأتي بعد في تفصيل كل من قال بهذه الأقوال، لكن المقصود أن لفظ المكاشفة يدعيه الصوفية، وما ادعوه من المكاشفة –إذا صدقوا في كلامهم– فقد حصل لهم مكاشفة عن طريق الشياطين، وإلا قد يكذبون.

أما أهل الإيمان قد تحصل لهم المكاشفة بأن تُكشف لهم أمور، كما رُوي عن عمر لما قال: يا سارية الجبل، وهذه مكاشفة صحيحة وهي كرامة، لكنها لا تكون للمستقبل، وإنما تكون للغيب الجزئي، لأن الغيب نوعان كما ذكر ابن تيمية في كتابه (النبوات): غيب جزئي وغيب مطلق، والمطلق في المستقبل وهذا لا يكون إلا لله، ومن يُظهر على ذلك من رسله على ما تقدم ذكره، أما الجزئي، الآن نحن نعلم ما يحصل في المسجد لكن لا نعلم ما يكون في بيوتنا، فقد يطلع الرجل بكرامة لما يجري في بيته، وهذه تسمى مكاشفة وهي من الغيب الجزئي، والكرامة لا تكون في الغيب المطلق على ما تقدم تقريره.

فهؤلاء فيهم من الكفر ما يناقض الإيمان. فضلا عن ولاية الله عز وجل. فمن احتج بما يصدر عن أحدهم من خرق عادة على ولايتهم كان أضل من اليهود والنصارى.

وكذلك المجنون؛ فإن كونه مجنونا يناقض أن يصح منه الإيمان والعبادات التي هي شرط في ولاية الله ومن كان يجن أحيانا ويفيق أحيانا. إذا كان في حال إفاقته مؤمنا بالله ورسوله ويؤدي الفرائض ويجتنب المحارم؛ فهذا إذا جن لم يكن جنونه مانعا من أن يثيبه الله تعالى على إيمانه وتقواه الذي أتى به في حال إفاقته ويكون له من ولاية الله بحسب ذلك. وكذلك من طرأ عليه الجنون بعد إيمانه وتقواه؛ فإن الله يثيبه ويأجره على ما تقدم من إيمانه وتقواه. ولا يحبطه بالجنون الذي ابتلي به من غير ذنب فعله والقلم مرفوع عنه في حال جنونه. وعلى هذا فمن أظهر الولاية وهو لا يؤدي الفرائض ولا يجتنب المحارم بل قد يأتي بما يناقض ذلك لم يكن لأحد أن يقول: إن هذا ولي لله.

وهذه قاعدة عظيمة وكررها بألفاظ متعددة، {إن أولياؤه إلا المتقون}، "إن" هنا نافية، أي ما أولياؤه إلا المتقون.

فإن هذا إن لم يكن مجنونا؛ بل كان متولها من غير جنون أو كان يغيب عقله بالجنون تارة ويفيق أخرى وهو لا يقوم بالفرائض بل يعتقد أنه لا يجب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا كافر، ومن اعتقد هذا ولي الله فهو كافر أيضًا، وإن كان مجنونا باطنا وظاهرا قد رفع الله عنه القلم؛ فهذا وإن لم يكن معاقبا عقوبة الكافرين فليس هو مستحقا لما يستحقه أهل الإيمان والتقوى من كرامة الله عز وجل فلا يجوز على التقديرين أن يعتقد فيه أحد أنه ولي لله ولكنه إن كان له حالة في إفاقته كان فيها مؤمنا بالله متقيا كان له من ولاية الله بحسب ذلك وإن كان له في حال إفاقته فيه كفر أو نفاق أو كان كافرا أو منافقا ثم طرأ عليه الجنون فهذا فيه من الكفر والنفاق ما يعاقب عليه وجنونه لا يحبط عنه ما يحصل منه حال إفاقته من كفر أو نفاق.

إذن الخلاصة لا يكون وليًا إلا بالعمل الصالح، والمجنون الذي استمر جنونه معه ليس وليًا لله لأنه ليس عنده عمل صالح.

وكذلك الجاهل الذي لم يعمل الخير جهلًا، ليس وليًا لله لأنه ليس عنده عمل صالح، ومثله الطفل غير المميز ليست عنده أعمال صالحة، فلا يكون وليًا لله.

وسبب إيراد شيخ الإسلام لهذا أن من الصوفية من يغلو في المجانين، ويقول: لشدة صلاحهم وولايتهم أصبحوا مجانين، فيعظمونهم ويرفعون من درجتهم، فبين أن أمثال هؤلاء إذا ثبت جنونهم فإنهم ليسوا أولياءً لله، لأن الولي هو من

يعمل الصالحات، وهؤلاء لا يعملون الصالحات بسبب جنونهم، أما من يطرأ له الجنون فهو ولي بحسب ما طرأ له، إذا طرأ له الجنون فهو غير مكلف، وإذا ارتفع جنونه فاتقى الله، فإنه يكون وليًا، فإن لم يتق الله عند ارتفاع الجنون فإنه لا يكون وليًا.

فصل:

وليس لأولياء الله شيء يتميزون به عن الناس في الظاهر من الأمور المباحات.

وهذا كلام مهم للغاية، وقد ذكره في كتابه (الاستقامة) بأوضح من هذا وكلامه كان عن أهل العلم خاصة، فليس لأهل العلم لباس يتميزون به عن غيرهم، بل هذه من البدع التي حصلت عند المتأخرين، وقيل أول من فعل ذلك أبو يوسف صاحب أبي حنيفة.

فليس لأهل العلم لباس خاص يختصون به عن غيرهم، بل أهل العلم كغيرهم، فما يُعرف في بعض دول العالم الإسلامي من أن هذا اللباس خاص بأهل العلم فهذا خطأ، بل هذه من البدع الدخيلة على الإسلام.

وقد يظن بعضهم أن لبس أهل العلم للعباءة في بلادنا من اللباس الخاص بأهل العلم، وهذا خطأ لمن يعرف واقع بلادنا، فإنه يلبسها كل من أراد أن يتزين بها من خطيب وأمير ومسؤول وكل أحد..، فليست لباسًا خاصًا بأهل العلم.

فالمقصود ليس لأهل العلم لباس خاص وهم كغيرهم، لذلك يأتي الأعرابي فيقول: أين محمد -صلى الله عليه وسلم-؟ لأن لباسه كالصحابة -رضي الله

عنهم-، إذن ليس لهم أيضًا لباس يتميزون به، لأنه قد يُظن أن الولي لا بد أن يكون متبذّلًا في لباسه كما يظن ذلك الصوفية، وأن من يتحسن في لباسه فليس وليًا من أولياء الله، وردّ هذا شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-.

فلا يتميزون بلباس دون لباس إذا كان كلاهما مباحا ولا بحلق شعر أو تقصيره أو ظفره إذا كان مباحا كما قيل: كم من صديق في قباء وكم من زنديق في عباء؛

القباء هو لباس متميز يلبسه أهل الزينة وهو شيء يلبس على الثياب، فيقول: كم من صديق قد تزين بلباس القَباء، وفي المقابل: وكم من زنديق في عَباء..، وهذا لباس دون لباس الزينة، ومع ذلك قد يكون زنديقًا ويلبس هذا اللباس، لأن الصوفية اشتهروا باللباس المتبذّل ليُظهروا ولايتهم.

بل يوجدون في جميع أصناف أمة محمد صلى الله عليه وسلم إذا لم يكونوا من أهل البدع الظاهرة والفجور، فيوجدون في أهل القرآن وأهل العلم ويوجدون في أهل الجهاد والسيف ويوجدون في التجار والصناع والزراع.

إذن البدعة تتنافى مع الولاية، لا يكون الولي مبتدعًا، إذا كان لا يكون فاسقًا فمن باب أولى لا يكن مبتدعًا، فإن البدعة أشد إثمًا من الفسق بالإجماع، ذكر الإجماع شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-.

وليست الولاية خاصة بأهل القرآن، بل حتى الزرّاع، والصنّاع، ويكون من الحذّائين..إلخ، ومع ذلك يكون وليًا من أولياء الله، فذكر العبّاد والعلماء والمجاهدين وأهل التجارة والتكسّب، وكلهم عباد لله.

وقد ذكر الله أصناف أمة محمد صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى {إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم فاقرءوا ما تيسر من القرآن علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله فاقرؤوا ما تيسر منه}.

وكان السلف يسمون أهل الدين والعلم (القراء) فيدخل فيهم العلماء والنساك.

إذا قيل "القرّاء" عند الاطلاق يدخل فيهم العلماء والعبّاد، وإذا قُرن "القرّاء" بالفقهاء، فيختص "الفقهاء" بالعلماء و"القرّاء" بأهل القرآن الذين يتلونه من غير علم، لذا في قصة عوف بن مالك –رضي الله عنه– لما ذكر أولئك، قالوا: ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء، أي العلماء، لكن قال ابن مسعود: أنتم في زمان كثير فيه فقهاؤه قليل فيه قرّاؤه، وسيأتي زمان كثير فيه قرّاؤه قليل فيه فقهاؤه، فيُحمل القرّاء على من يقرأ القرآن بلا علم.

وقد أشار لهذا المعنى ابن حجر في (الفتح)، وسليمان بن عبد الله في (تيسير العزيز الحميد)، وأشار هنا شيخ الإسلام أن القرّاء يدخل فيهم العلماء والنسّاك..إلخ.

ثم حدث بعد ذلك اسم (الصوفية والفقراء).

اطلاق الفقراء على غير الفقر المعروف، وعلى غير الفقر بالله، واستعمال هذا على أنه مرتبة، هذا درجة ومرتبة عند الصوفية، وسيبين هذا شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–، لذلك الأحسن –والله أعلم– إذا كتب رجل كتابًا أو شيئًا من ذلك، لا يقول: "كتبه الفقير إلى الله"، أو: "الفقير إلى عفو الله"، فإن هذا اللفظ في أصله اشتهر عند الصوفية، أما أئمة السنة لا ترى عندهم أمثال هذه العبارات، وذكر هذا ابن تيمية كما في (مجموع الفتاوى).

واسم (الصوفية) هو نسبة إلى لباس الصوف؛ هذا هو الصحيح، وقيل إنه نسبة إلى صوفة القفا، وقيل إلى صوفة بن إد بن طابخة، قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنساك، وقيل إلى أهل الصُفّة، وقيل إلى الصفاء، وقيل إلى الصفوة وقيل إلى الصف المقدم بين يدي الله تعالى، وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقيل صفّي أو صفائي أو صفوي أو صَفِي ولم يقل صوفي.

و"صوفي" لا تصح نسبة إلا لأحد اثنين: إما لباس الصوف، أو إلى القبيلة المعروفة "صوفة"، وهذه القبيلة كان لها شأن في الجاهلية، وكان الناس يدفعون بدفعها..إلى غير ذلك، فلا تصح النسبة إلا إلى أحد هذين الأمرين، وقد ذهب ابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس) إلى أن النسبة إلى "صوفة بن مر"، وذكر أنها كانت معروفة بالتعبّد والتنسّك في الجاهلية، أما ابن تيمية في هذا الموضع وفي أكثر

من موضع يجعل النسبة راجعة إلى لبس الصوف، وقال ابن الجوزي: والصواب أنها إلى "صوفة بن مر"، ولو قيل أنها إلى لبس الصوف لصحّ، أو قال: ليس بعيدًا. لكن ابن تيمية في بعض المواضع كما في (مجموع الفتاوى) رد هذا، وقال: إن "صوفة بن مر" ما كان معروفًا، ولم يكن مشهورًا عند كثير من النسّاك، ثم لو كانت النسبة إليه لكانت النسبة مشهورة عند الصحابة والتابعين، لأنه قبل الصحابة والتابعين، فقال: إنما الصواب النسبة إلى لبس الصوف.

وصار أيضا اسم (الفقراء) يعني به أهل السلوك وهذا عُرف حادث وقد تنازع الناس أيما أفضل مسمى (الصوفي) أو مسمى (الفقير)؟

وهذا هو الشاهد:"وهذا عرف حادث"، لذلك الأحسن -والله أعلم- ألا يكتب: كتبه الفقير إلى عفو ربه، أو كتبه الفقير فلان.

ويتنازعون أيضا أيما أفضل: الغني الشاكر أو الفقير الصابر؟. وهذه المسألة فيها نزاع قديم بين الجنيد وبين أبي العباس بن عطاء وقد روي عن أحمد بن حنبل فيها روايتان والصواب في هذا كله ما قاله الله تبارك وتعالى حيث قال: {يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم}.
وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل: أي الناس أفضل؟ قال «أتقاهم»، قيل له: ليس عن هذا نسألك، فقال: «يوسف نبي الله ابن يعقوب نبي الله ابن إسحاق نبي الله ابن إبراهيم خليل الله»،

فقيل له: ليس عن هذا نسألك. فقال: «أفعن معادن العرب تسألوني؟ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا».

فدل الكتاب والسنة على أن أكرم الناس عند الله أتقاهم. وفي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، فالناس من آدم وآدم من تراب».

مقتضى كلام شيخ الإسلام أنه لا يرى المفاضلة بينهما، وهذه الطريقة يسلكها كثيرًا شيخ الإسلام، فإنه لما اختلف العلماء، أي الأعمال أفضل؟ ذكر ابن تيمية ثم ابن القيم ثم المقريزي في كتابه (التوحيد)، أن كل عمل أفضل بحسبه، إذا نادى المؤذن فالأفضل إجابة المؤذن..إلخ، وهذا يظهر لي -والله أعلم- ليس ترجيحًا في المسألة، لأن المرجح في مثل هذا بأمر خارجي، والعلماء إذا بحثوا أيهما أفضل، أي بالنظر إلى ذاتها لا لأمر خارجي.

وعنه أيضا صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إن الله تعالى أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس رجلان: مؤمن تقي وفاجر شقي».

فمن كان من هذه الأصناف أتقى لله فهو أكرم عند الله وإذا استويا في التقوى استويا في الدرجة، ولفظ (الفقر) في الشرع يراد به الفقر من المال ويراد به فقر المخلوق إلى خالقه، كما قال تعالى: {إنما الصدقات للفقراء والمساكين} وقال تعالى: {يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد}.

صحيح، فلا يُطلق الفقر في الشرع إلا على هذين المعنيين، بخلاف المعنى الحادث عند الصوفية، إما الفقير ماليًا أو فقر الناس عمومًا إلى ربهم سبحانه، وليس هناك مرتبة للعبّاد والنسّاك بحيث يسمون بالفقراء.

وقد مدح الله تعالى في القرآن صنفين من الفقراء: أهل الصدقات وأهل الفيء فقال في الصنف الأول: {للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا} وقال في الصنف الثاني وهم أفضل الصنفين: {للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون}.

يعني هؤلاء الفقراء مُدحوا لا لأنهم فقراء وإنما لشيء خارجي وآخر، فالأولون مُدحوا لأنهم صبروا على الفقر وأظهروا خلاف ذلك، والفقراء من المهاجرين مُدحوا لأنهم من المهاجرين وهاجروا في سبيل الله لا لأجل الفقر.

وهذه صفة المهاجرين الذين هجروا السيئات وجاهدوا أعداء الله باطنا وظاهرا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله».

أما الحديث الذي يرويه بعضهم أنه قال في غزوة تبوك «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، فلا أصل له ولم يروه أحد من أهل المعرفة بأقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله.

وجهاد الكفار من أعظم الأعمال؛ لا بل هو أفضل ما تطوع به الإنسان قال الله تعالى: {لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما} وقال تعالى: {أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين} {الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون} {يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم} {خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم}.

وقد حصل نزاع بين أهل العلم: أي الأعمال التطوعية أفضل؟ وابن تيمية يشير في هذا الموضع إلى أن الجهاد أفضل الأعمال التطوعية، وذهب جماهير أهل العلم إلى أن العلم أفضل الأعمال التطوعية، كما ذهب لذلك أبو حنيفة ومالك وهو قول للشافعي ورواية عن الإمام أحمد وهو الظاهر –والله أعلم–، لأن كل العبادات محتاجة إلى العلم، ولأن الله، سمى الوحي باسم العلم {ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ما جاءك من العلم}، ولم يأمر الله نبيه أن يزداد من شيء إلا من العلم، إلى غير ذلك من الأدلة.

وثبت في صحيح مسلم وغيره عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال رجل: ما أبالي ألا أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أسقي الحاج، وقال آخر: ما أبالي أن أعمل عملا بعد الإسلام إلا أن أعمر المسجد الحرام، وقال علي بن أبي طالب الجهاد في سبيل الله أفضل مما ذكرتما، فقال عمر: لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن إذا قضيت الصلاة سألته، فسأله فأنزل الله تعالى هذه الآية: { أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين}.

وفي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله؛ أي العمل أحب إلى الله عز وجل؟ قال: «الصلاة على وقتها»، قلت: ثم أي؟ قال: «بر الوالدين»، قلت: ثم أي؟ قال: «الجهاد في سبيل الله»، قال: حدثني بهن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو استزدته لزادني.

يظهر لي –والله أعلم– وأنا لا أحب ذكر هذه المسائل الاستطرادية كما ذكرت في المقدمة، أن هذا الحديث لا ينبغي أن يُورد في باب المفاضلة، لأن هذا الحديث فيه ذكر للأعمال الواجبة، والمفاضلة في الأعمال المستحبة.

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه سئل أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله وجهاد في سبيله»، قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور».

وفي الصحيحين أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله أخبرني بعمل يعدل الجهاد في سبيل الله فقال: «لا تستطيعه –أو لا تطيقه–»،

قال: فأخبرني به قال: «هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم ولا تفطر وتقوم ولا تفتر؟».

وفي السنن عن معاذ رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وكان النبي صلى الله عليه وسلم وصاه لما بعثه إلى اليمن فقال: «يا معاذ اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»، وقال: «يا معاذ إني لأحبك فلا تدع أن تقول في دبر كل صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك».

وعند المذاهب الأربعة أن المراد بـ «دبر كل صلاة» أي بعدها، وهو اختيار البخاري –رحمه الله–، وقد أجمع العلماء على أنه إذا ذُكر الذكر وجاء بلفظ «دبر الصلاة»، المراد به بعد الصلاة، ذكره الحافظ ابن حجر في (الفتح)، وهو الذي رأيته في كلام الأولين، أنه إذا ذُكر دبر الصلاة في باب الأدعية الأصل أنه يراد به بعد الصلاة.

وقال له – وهو رديفه –: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟» قلت: الله ورسوله أعلم، قال: «حقهم عليه ألا يعذب من لا يشرك به شيئًا».

وقال أيضا لمعاذ: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله» وقال: «يا معاذ ألا أخبرك بأبواب البر؟ الصوم جنة والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار وقيام الرجل في جوف الليل ثم قرأ {تتجافى جنوبهم

عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون} {فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون}»، ثم قال: «يا معاذ ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟» قلت: بلى، فقال: «أمسك عليك لسانك هذا» فأخذ بلسانه، قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم –أو قال: على مناخرهم– إلا حصائد ألسنتهم».

وتفسير هذا ما ثبت في الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت» فإن التكلم بالخير خير من السكوت عنه والصمت عن الشر خير من التكلم به فأما الصمت الدائم فبدعة منهي عنها

المراد بالصمت الدائم أي على وجه التعبد، لأن من ضوابط البدعة أن يُتعبّد بها فعلًا أو تركًا، كما قال سبحانه: {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين}، وفي الصحيحين من حديث عائشة: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» أي في ديننا، وقد ذكر أنه من ضوابط البدعة أن يُتعبد بها جمع من أهل العلم، نصًا واستنباطًا وإشارةً، كالطرطوشي وأبي شامة وشيخ الإسلام ابن تيمية في مواضع، والشاطبي –رحمه الله– في كتابه (الاعتصام) وكرره في أكثر من موضع.

فشرط البدعة أن يُتعبّد بها، فمن صمت كثيرًا بلا تعبّد فلا يقال إنه بدعة، وإنما يقال: إذا فعل ذلك تعبدًا، وهذا هو مراد شيخ الإسلام –رحمه الله–.

وكذلك الامتناع عن أكل الخبز واللحم وشرب الماء فذلك من البدع المذمومة أيضا، كما ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلا قائما في الشمس فقال: «ما هذا؟» فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم في الشمس ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم، فقال: «مروه فليجلس وليستظل وليتكلم وليتم صومه».

لاحظ قال: «ويصوم»، إشارة إلى أن هذه الأفعال على وجه التعبّد.

وثبت في الصحيحين عن أنس أن رجالا سألوا عن عبادة رسول الله صلى الله عليه وسلم في السر، فكأنهم تقالوها، فقالوا وأينا مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحدهم: أما أنا فأصوم ولا أفطر وقال الآخر: أما أنا فأقوم ولا أنام وقال الآخر: أما أنا فلا آكل اللحم وقال الآخر: أما أنا فلا أتزوج النساء، فقال النبي الله صلى الله عليه وسلم: «ما بال رجال يقول أحدهم كذا وكذا ولكني أصوم وأفطر وأقوم وأنام وآكل اللحم وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني».
فقوله: «فمن رغب عن سنتي»، أي: سلك غيرها ظانا أن غيرها خير منها، فمن كان كذلك فهو بريء من الله ورسوله قال تعالى: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه}، بل يجب على كل مؤمن أن يعتقد أن خير الكلام كلام الله وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم كما ثبت عنه في الصحيح أنه كان يخطب بذلك كل يوم جمعة.

فصل:

وليس من شرط ولي الله أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ؛ بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب أن بعض الأمور مما أمر الله به ويكون مما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله وتكون من الشيطان لبسها عليه لينقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان وإن لم يخرج بذلك عن ولاية الله تعالى؛ فإن الله سبحانه وتعالى تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه..

وهذا من شيخ الإسلام تنبيه عظيم، فقد يخطئ الولي وقد يجتهد ويخطئ، وقد يظن شيئًا خيرًا ولا يكون كذلك، وهذا من رحمة الله بهذه الأمة.

فقال الله تعالى: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين}.
وقد ثبت في الصحيحين أن الله سبحانه استجاب هذا الدعاء وقال: قد فعلت، ففي صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال لما نزلت هذه الآية {وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير} قال: قد دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم منه شيء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا»، قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم فأنزل الله تعالى: {لا يكلف الله

نفسا إلا وسعها} إلى قوله {ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا} قال الله: قد فعلت {ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا} قال: قد فعلت {ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين} قال قد فعلت. وقد قال تعالى {وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم}.

وثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم من حديث أبي هريرة وعمرو بن العاص رضي الله عنهما مرفوعا أنه قال: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر»، فلم يؤثم المجتهد المخطئ؛ بل جعل له أجرا على اجتهاده وجعل خطأه مغفورا له ولكن المجتهد المصيب له أجران فهو أفضل منه؛

وفي الأمور العملية، أي في باب الاعتقاد والفقه، ويدل على ذلك لفظ الحديث، قال: «إذا اجتهد الحاكم فأخطأ»، «اجتهد» فعل في سياق الشرط فيفيد العموم، ثم ذكر ابن تيمية أن على هذا السلف، وذكر مثله ابن القيم –رحمه الله– في كتابه (أعلام الموقعين)، وحكى ابن تيمية أن هذا هو ما عليه السلف بل حكاه قبلهم ابن حزم في كتابه (الفِصل) قال: هذا قول الصحابة والتابعين ومن بعدهم.

ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله من هو ولي لله، إلا أن يكون نبيا؛ بل ولا يجوز لولي أن يعتمد على ما يُلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقا، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاما ومحادثة وخطابا من الحق؛

عند الصوفية أن الإلهام شيء يقع في القلب بلا استدلال، فيعملون به، وهذا خطأ، وعندهم الخطاب شيء يسمعه يُخاطب به ويزعمون أن الحق يخاطبهم، وهذا أيضًا خطأ، وكلاهما لا يصح أن يُرجع إليهما ولا أن يُعتمد عليهما، وإنما يُدار مع الدليل حيث دار.

لذا قال: "إلا أن يكون موافقًا للشرع"، فيزعمون أنه قد يُخاطب الولي، قالوا كنداء الله لموسى، وهذا كذب ولا يصح أن يُعتمد عليه.

بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله وإن لم يعلم أموافق هو لقوله أم مخالف؟ توقف فيه.

والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف طرفان ووسط؛ فمنهم من إذا اعتقد في الشخص أنه ولي لله وافقه في كل ما يظن أنه حدثه به قلبه عن ربه وسلم إليه جميع ما يفعله ومنهم من إذا رآه قد قال أو فعل ما ليس بموافق للشرع أخرجه عن ولاية الله بالكلية وإن كان مجتهدا مخطئا

صحيح، لا إفراط ولا تفريط، فلا يُتبّع الولي فيما يزعم أن الله حدّثه به ولا في المقابل يُسقط الرجل من الولاية لأن عنده خطأ.

وخيار الأمور أوسطها وهو ألا يُجعل معصوما ولا مأثومًا إذا كان مجتهدا مخطئا فلا يُتبع في كل ما يقوله ولا يحكم عليه بالكفر والفسق مع اجتهاده.

والواجب على الناس اتباع ما بعث الله به رسوله وأما إذا خالف قوله بعض الفقهاء ووافق قول آخرين لم يكن لأحد أن يلزمه بقول المخالف ويقول هذا خالف الشرع.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قد كان في الأمم قبلكم محدثون فإن يكن في أمتي أحد فعمر منهم».

والمراد بالمحدَّث أي المُلهم، وليس معناه أن عمر حجة مطلقًا لأنه ملهم كما سيبينه شيخ الإسلام –رحمه الله–، لكنه أرجى وأحرى لأن يُوفّق للحق من غيره، وهذا هو الذي فهمه السلف من جهة عمر –رضي الله عنه–.

وروى الترمذي وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لو لم أبعث فيكم لبعث فيكم عمر»، وفي حديث آخر: «إن الله ضرب الحق على لسان عمر وقلبه»، وفيه: «لو كان نبي بعدي لكان عمر».

وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه يقول ما كنا نبعد أن السكينة تنطق على لسان عمر. ثبت هذا عنه من رواية الشعبي. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: ما كان عمر يقول في شيء: إني لأراه كذا، إلا أُراه كما يقول.

وعن قيس عن طارق رضي الله عنه قال: كنا نتحدث أن عمر ينطق على لسانه ملك. وكان عمر يقول اقتربوا من أفواه المطيعين واسمعوا منهم ما يقولون فإنه تتجلى لهم أمور صادقة.

وهذه الأمور الصادقة التي أخبر بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنها تتجلى للمطيعين هي الأمور التي يكشفها الله عز وجل لهم. فقد ثبت أن لأولياء الله

مخاطبات ومكاشفات؛ فأفضل هؤلاء في هذه الأمة بعد أبي بكر هو عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فإن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر.
وقد ثبت في الحديث الصحيح تعيين عمر بأنه محدث من هذه الأمة، فأي محدث ومخاطب فرض في أمة محمد صلى الله عليه وسلم فعمر أفضل منه ومع هذا فكان عمر رضي الله عنه يفعل ما هو الواجب عليه فيعرض ما يقع له على ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، فتارة يوافقه فيكون ذلك من فضائل عمر كما نزل القرآن بموافقته غير مرة وتارة يخالفه فيرجع عمر عن ذلك كما رجع يوم الحديبية لما كان قد رأى محاربة المشركين والحديث معروف في البخاري وغيره؛

إذن إذا كان هذا عمر وقد جاء فيه النص ولا يُحتج بقوله مع أنه مُحدّث، فغيره ممن يُزعم من الصوفية وشيوخهم بأن لهم مخاطبات ومكاشفات أولى وأولى أن لا يُحتج بقولهم، هذا الشاهد من كلام شيخ الإسلام –رحمه الله– وهو المراد مما ذكر.

فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان قد اعتمر سنة ست من الهجرة ومعه المسلمون نحو ألف وأربعمائة وهم الذين بايعوه تحت الشجرة وكان قد صالح المشركين بعد مراجعة جرت بينه وبينهم على أن يرجع في ذلك العام ويعتمر من العام القابل وشرط لهم شروطا فيها نوع غضاضة بالمسلمين في الظاهر فشق ذلك على كثير من المسلمين وكان الله ورسوله أعلم وأحكم بما في ذلك من المصلحة، وكان عمر فيمن كره ذلك حتى قال للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم: يا رسول الله ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: «بلى» قال: أفليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «بلى» قال: فعلام نعطي الدنية في

ديننا؟ فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «إني رسول الله وهو ناصري ولست أعصيه» ثم قال: أفلم تكن تحدثنا أنا نأتي البيت ونطوف به؟ قال: «بلى، أقلت لك أنك تأتيه العام؟» قال: لا، قال: «فإنك آتيه ومطوف به»، فذهب عمر إلى أبي بكر رضي الله عنهما فقال له مثل ما قال النبي صلى الله عليه وسلم ورد عليه أبو بكر مثل جواب النبي صلى الله عليه وسلم.

ولم يكن أبو بكر سمع جواب النبي صلى الله عليه وسلم فكان أبو بكر رضي الله عنه أكمل موافقة لله وللنبي صلى الله عليه وسلم من عمر، وعمر رضي الله عنه رجع عن ذلك وقال: فعملت لذلك أعمالا.

إذن مع أن عمر محدّث إلا أنه أخطأ وأصاب أبو بكر، فغيره أولى أن لا يُحتجّ بقوله ممن يُعظمه الصوفية من المخاطبات والمكاشفات المزعومة بالمعنى الذي عندهم.

وسيذكر ابن تيمية ما يدل على أن عمر أخطأ وأصاب أبو بكر –رضي الله عنه–.

وكذلك لما مات النبي صلى الله عليه وسلم أنكر عمر موته أولًا، حتى قال أبو بكر: إنه مات، رجع عمر عن ذلك.

وكذلك في قتال مانعي الزكاة قال عمر لأبي بكر: كيف نقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»؟ فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ألم يقل: «إلا بحقها» فإن الزكاة من حقها والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها. قال عمر: فو الله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعلمت أنه الحق.

ولهذا نظائر من تقدم أبي بكر على عمر مع أن عمر رضي الله عنه محدث؛ فإن مرتبة الصديق فوق مرتبة المحدث لأن الصديق يتلقى عن الرسول المعصوم كل ما يقوله ويفعله والمحدث يأخذ عن قلبه أشياء وقلبه ليس بمعصوم فيحتاج أن يعرضه على ما جاء به النبي المعصوم صلى الله عليه وسلم

لأن المحدث تقدم المراد به المُلهم كما ذهب لهذا جماهير أهل العلم فيما ذكره الحافظ في (الفتح)، ومع ذلك هذا المُلهم الذي يأتي الشيء في قلبه، قد يظن هذا الشيء إلهامًا من الله ولا يكون، أما الصديق فكان اعتماده على ما جاء من الشرع، ومن اعتمد على الشرع فقطعًا هو مصيب.

ولهذا كان عمر رضي الله عنه يشاور الصحابة رضي الله عنهم ويناظرهم ويرجع إليهم في بعض الأمور وينازعونه في أشياء فيحتج عليهم ويحتجون عليه بالكتاب والسنة ويقرهم على منازعته ولا يقول لهم: أنا محدث ملهم مخاطب فينبغي لكم أن تقبلوا مني ولا تعارضوني فأي من ادعى أو ادعى له أصحابه أنه ولي الله وأنه مخاطب يجب على الناس اتباعه وأن يقبلوا منه كل ما يقوله ولا يعارضوه ويسلموا له حاله من غير اعتبار بالكتاب والسنة فهو وهم مخطئون ومثل هؤلاء من أضل الناس فعمر بن الخطاب رضي الله عنه أفضل منه

يعني هذا لو كان من أفضل الناس فقطعًا عمر أفضل منه، فعمر لم يتبعوه، فهذا قطعًا من باب أولى أن لا يُتبّع.

وهو أمير المؤمنين وكان المسلمون ينازعونه ويعرضون ما يقوله هو وهم على الكتاب والسنة وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها على أن كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذا من الفروق بين الأنبياء وغيرهم فإن الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه يجب لهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل وتجب طاعتهم فيما يأمرون به؛ بخلاف الأولياء فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يأمرون به ولا الإيمان بجميع ما يخبرون به؛ بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله وما خالف الكتاب والسنة كان مردودا وإن كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهدا معذورا فيما قاله له أجر على اجتهاده، ولكنه إذا خالف الكتاب والسنة كان مخطئا وكان من الخطإ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع؛ فإن الله تعالى يقول: {فاتقوا الله ما استطعتم} وهذا تفسير قوله تعالى {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته} قال ابن مسعود وغيره رضي الله عنه: حق تقاته أن يطاع فلا يعصى وأن يذكر فلا ينسى؛ وأن يشكر فلا يكفر، أي بحسب استطاعتكم فإن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها كما قال تعالى: {لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت} وقال تعالى: {والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون} وقال تعالى: {وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها}.

وقد ذكر الله سبحانه وتعالى الإيمان بما جاءت به الرسل في غير موضع كما قال تعالى: {قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون} وقال تعالى: {الم} {ذلك الكتاب لا ريب فيه

هدى للمتقين} {الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} {والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون} {أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون} وقال تعالى: {ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون}.

وهذا الذي ذكرته من أن أولياء الله يجب عليهم الاعتصام بالكتاب والسنة وأنه ليس فيهم معصوم يسوغ له أو لغيره اتباع ما يقع في قلبه من غير اعتبار بالكتاب والسنة هو مما اتفق عليه أولياء الله عز وجل، ومن خالف في هذا فليس من أولياء الله سبحانه الذين أمر الله باتباعهم؛ بل إما أن يكون كافرا وإما أن يكون مفرطا في الجهل.

وهذه أيضًا قاعدة عظيمة، من زعم أنه هو يُتبع في كل شيء فهو ليس وليًا أو غيره يدعي ذلك فيه.

وهذا كثير في كلام المشايخ كقول الشيخ أبي سليمان الداراني رحمه الله: إنه ليقع في قلبي النكتة من نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين: الكتاب والسنة.

"المشايخ": أي مشايخ الصوفية، وهذه النقولات مفيدة للغاية في محاجّة الصوفية، لأنهم يعظمون مثل أبي سليمان الداراني وغيره، فيُرد عليهم من كلام مُعظميهم، وقد ذكر شيخ الإسلام –رحمه الله– نقولات أيضًا في كتابه (الاستقامة)، وابن الجوزي في كتابه (تلبيس إبليس)، وابن القيم في (مدارج السالكين)، فيُستفاد من هذه النقولات في الرد على من زاغ وضلّ من الصوفية ممن عظم أئمتهم ولو خالفوا الكتاب والسنة.

وقال أبو القاسم الجنيد رحمه الله: علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم في علمنا ولا يقتدى به. وقال أبو عثمان النيسابوري من أمّر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة؛ لأن الله تعالى يقول في كلامه القديم: {وإن تطيعوه تهتدوا} وقال أبو عمرو بن نجيد رحمه الله: كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل.

وكثير من الناس من يغلط في هذا الموضع فيظن في شخص أنه ولي لله ويظن أن ولي الله يُقبل منه كل ما يقوله ويسلم إليه كل ما يفعله وإن خالف الكتاب والسنة، فيوافق ذلك الشخص ويخالف ما بعث الله به رسوله الذي فرض الله على جميع الخلق تصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر وجعله الفارق بين أوليائه وأعدائه وبين أهل الجنة وأهل النار وبين السعداء والأشقياء فمن اتبعه كان من أولياء الله المتقين وجنده المفلحين وعباده الصالحين؛ ومن لم يتابعه كان من أعداء الله الخاسرين المجرمين

إذن كثير من الناس يغلط في أمرين:

- الأمر الأول: في ظن شخص أنه ولي لله.
- الأمر الثاني: فيمن يُظن أنه ولي ولو كان وليًا فإنه يغلط في متابعته في كل أقواله ولو خالف الكتاب والسنة.

فتجره مخالفة الرسول وموافقة ذلك الشخص أولا إلى البدعة والضلال وآخرا إلى الكفر والنفاق ويكون له نصيب من قوله تعالى: {ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا} {يا ويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا} {لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا} وقوله تعالى {يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا} {وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا} {ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا} وقوله تعالى {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا وأن الله شديد العذاب} {إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب} {وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار}.

وهؤلاء مشابهون للنصارى الذين قال الله تعالى فيهم: {اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون}، وفي المسند والترمذي وصححه عن عدي بن حاتم في تفسيره هذه الآية لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عنها فقال: ما

عبدوهم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ولكن أحلوا لهم الحرام فأطاعوهم، وحرموا عليهم الحلال فأطاعوهم، فكانت تلك عبادتهم إياهم».

ولهذا قيل في مثل هؤلاء إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول فإن أصل الأصول تحقيق الإيمان بالله ورسوله، فلا بد من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ولا بد من الإيمان بأن محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جميع الخلق إنسهم وجنهم، عربهم وعجمهم، علمائهم وعبادهم، ملوكهم وسوقتهم، وأنه لا طريق إلى الله عز وجل لأحد من الخلق إلا بمتابعته باطنا وظاهرا حتى لو أدركه موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء لوجب عليهم اتباعه كما قال تعالى: {وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قالوا أقررنا قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين} {فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون}.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بعث الله نبيا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بُعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه وأمره أن يأخذ على أمته الميثاق لئن بعث محمد وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه وقد قال الله تعالى: {ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا} {وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا} {فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاءوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا} {أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا} {وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول

لوجدوا الله توابا رحيما} {فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما}.
وكل من خالف شيئا مما جاء به الرسول مقلدا في ذلك لمن يظن أنه ولي لله فإنه بنى أمره على أنه ولي لله؛ وأن ولي الله لا يخالف في شيء ولو كان هذا الرجل من أكبر أولياء الله كأكابر الصحابة والتابعين لهم بإحسان لم يقبل منه ما خالف الكتاب والسنة؛ فكيف إذا لم يكن كذلك

وهذا حق، إذا لم يُقبل من أجلّ وأفضل الصحابة كأبي بكر و عمر..إلخ، فغيرهم من باب أولى ممن يغلب على الظن أنه ولي فكيف ممن ليس كذلك.
فشيخ الإسلام –رحمه الله– يدور على هذا لقطع الطريق على هؤلاء الصوفية وسد هذا الباب وهو باب الغلو في الصالحين وقبول ما عندهم من غير الكتاب والسنة باسم تعظيم الأولياء واتباعهم..إلى غير ذلك.

وتجد كثيرا من هؤلاء عمدتهم في اعتقاد كونه وليا لله أنه قد صدر عنه مكاشفة في بعض الأمور أو بعض الخوارق للعادة مثل أن يشير إلى شخص فيموت؛ أو يطير في الهواء إلى مكة أو غيرها أو أن يمشي على الماء أحيانا؛ أو يملأ إبريقا من الهواء؛ أو ينفق بعض الأوقات من الغيب أو أن يختفي أحيانا عن أعين الناس؛

ومن القواعد المهمة وهو الذي سيذكره شيخ الإسلام أن الكرامات إذا جرت للرجل فلا يلزم أن يكون وليًا فقد تكون من تلاعب الشياطين، وقد يكون الرجل صادقًا فيظن هذا الأمر كرامة وهو ليس كذلك، إنما أراد الشيطان أن يخدعه، ثم

لو سُلّم بأن ما جرى على يديه هو كرامة فليس هذا مبررًا لاتباعه وترك الكتاب والسنة.

أو أن بعض الناس استغاث به وهو غائب أو ميت فرآه قد جاء فقضى حاجته؛ أو يخبر الناس بما سرق لهم؛ أو بحال غائب لهم أو مريض أو نحو ذلك من الأمور؛ وليس في شيء من هذه الأمور ما يدل على أن صاحبها ولي لله؛ بل قد اتفق أولياء الله على أن الرجل لو طار في الهواء أو مشى على الماء لم يغتر به حتى يُنظر متابعته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وموافقته لأمره ونهيه. وكرامات أولياء الله تعالى أعظم من هذه الأمور؛ وهذه الأمور الخارقة للعادة وإن كان قد يكون صاحبها وليا لله فقد يكون عدوا لله؛ فإن هذه الخوارق تكون لكثير من الكفار والمشركين وأهل الكتاب والمنافقين وتكون لأهل البدع وتكون من الشياطين فلا يجوز أن يظن أن كل من كان له شيء من هذه الأمور أنه ولي لله؛ بل يعتبر أولياء الله بصفاتهم وأفعالهم وأحوالهم التي يدل عليها الكتاب والسنة

إذن العبرة بحالهم وموافقة الكتاب والسنة، والدليل على ذلك فعل السلف في موقفهم من أبي بكر وعمر، وغيرهم من الأجلة، فإنهم لم يتركوا الكتاب والسنة متابعةً لهم، ثم عموم الأدلة في وجوب الرد إلى الكتاب والسنة عند التنازع، كقوله{فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول}.

ويعرفون بنور الإيمان والإقرار وبحقائق الإيمان الباطنة وشرائع الإسلام الظاهرة. ومثال ذلك أن هذه الأمور المذكورة وأمثالها قد توجد في أشخاص ويكون أحدهم لا يتوضأ؛ ولا يصلي الصلوات المكتوبة؛ بل يكون ملابسا للنجاسات معاشرا للكلاب؛ يأوي إلى الحمامات والقمامين والمقابر والمزابل؛ رائحته خبيثة لا يتطهر الطهارة الشرعية؛ ولا يتنظف؛ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب ولا جنب»، وقال عن هذه الأخلية: «إن هذه الحشوش محتضرة»، أي تحضرها الشيطان وقال: «من أكل من هاتين الشجرتين الخبيثتين فلا يقربن مسجدنا؛ فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه بنو آدم». وقال «إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا» وقال: «إن الله نظيف يحب النظافة» وقال: «خمس فواسق يقتلن في الحل والحرم: الحية والفأرة والغراب والكلب العقور والحدأة» وفي رواية «الحية والعقرب».

وأمر صلوات الله وسلامه عليه بقتل الكلاب وقال: «من اقتنى كلبا لا يغني عنه زرعا ولا ضرعا نقص من عمله كل يوم قيراط»، وقال: «لا تصحب الملائكة رفقة معهم كلب»، وقال: «إذا ولغ الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات إحداهن بالتراب». وقد قال تعالى: {ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون} {الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون}.

فإذا كان الشخص مباشرا للنجاسات والخبائث التي تحبها الشياطين أو يأوي إلى الحمامات والحشوش التي تحضرها الشياطين أو يأكل الحيات والعقارب

والزنابير؛ وآذان الكلاب التي هي خبائث وفواسق أو يشرب البول ونحوه من النجاسات التي تحبها الشياطين أو يدعو غير الله فيستغيث بالمخلوقات ويتوجه إليها أو يسجد إلى ناحية قبر الشيخ ولا يخلص الدين لرب العالمين أو يلابس الكلاب أو النيران أو يأوي إلى المزابل والمواضع النجسة أو يأوي إلى المقابر؛ ولا سيما إلى مقابر الكفار من اليهود والنصارى أو المشركين أو يكره سماع القرآن وينفر عنه ويقدم عليه سماع الأغاني والأشعار ويؤثر سماع مزامير الشيطان على سماع كلام الرحمن فهذه علامات أولياء الشيطان لا علامات أولياء الرحمن.

وهذه العلامات مفيدة للغاية في تمييز أولياء الشيطان من أولياء الرحمن، وأعظم علامة هي التمسك بالكتاب والسنة ظاهرًا وباطنًا.

قال ابن مسعود رضي الله عنه لا يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فإن كان يحب القرآن فهو يحب الله وإن كان يبغض القرآن فهو يبغض الله.
وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: لو طهرت قلوبنا لما شبعت من كلام الله عز وجل؛ وقال ابن مسعود: الذكر ينبت الإيمان في القلب كما ينبت الماء البقل والغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل.
فإن كان الرجل خبيرا بحقائق الإيمان الباطنة فرّق بين الأحوال الرحمانية والأحوال الشيطانية فيكون قد قذف الله في قلبه من نوره كما قال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نورا تمشون به ويغفر لكم} وقال تعالى: {وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما

كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا}.

فهذا من المؤمنين الذين جاء فيهم الحديث الذي رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اتقوا فراسة المؤمن؛ فإنه ينظر بنور الله» قال الترمذي: حديث حسن.

الموجود في (تحفة الأشراف) للمزّي: قال الترمذي حديث غريب لا يُروى إلا من هذا الوجه، ومعنى "غريب" عند علماء الحديث الأوائل: أي ضعيف.

قال الإمام أحمد فيما نقل ابن رجب في (شرح العلل)، قال: إذا رأيت علماء الحديث يقولون: هذا الحديث فائدة أو غريب فاتركه، أي حديث ضعيف.

ونسخ الترمذي يحصل فيها اختلاف كثير، وأوثقها (تحفة الأشراف للمزي)، فمن قرأ في نسخ الترمذي وأراد أن يضبط اللفظ الذي حكم به الترمذي يرجع إلى (تحفة الأشراف) للمزي.

وقد تقدم أن الحديث الصحيح الذي في البخاري وغيره قال فيه: «لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها فبي يسمع وبي يبصر وبي يبطش وبي يمشي ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأكره مساءته ولا بد له منه».

وإذا كان العبد من هؤلاء فرق بين حال أولياء الرحمن وأولياء الشيطان كما يفرق الصيرفي بين الدرهم الجيد والدرهم الزيف وكما يفرق من يعرف الخيل بين الفرس الجيد والفرس الرديء وكما يفرق من يعرف الفروسية بين الشجاع والجبان وكما أنه يجب الفرق بين النبي الصادق وبين المتنبئ الكذاب فيفرق بين محمد الصادق الأمين رسول رب العالمين وموسى والمسيح وغيرهم وبين مسيلمة الكذاب؛ والأسود العنسي وطليحة الأسدي والحارث الدمشقي؛ وباباه الرومي؛ ونحوهم من الكذابين؛ وكذلك يفرق بين أولياء الله المتقين وأولياء الشيطان الضالين.

فصل:

و الحقيقة حقيقة الدين: دين رب العالمين، هي ما اتفق عليها الأنبياء والمرسلون؛ وإن كان لكل منهم شرعة ومنهاج.

وهذا الفصل مفيد للغاية، وذلك أن الأنبياء متفقون على دعوة التوحيد، ولذلك من سبل التفريق بين الولي وغيره أن الولي يُتابع ما جاء به النبي مما وافق به الأنبياء قبله، فالأنبياء يوافق بعضهم بعضًا في أصول الدين، فمن خالف في أصول الدين فليس وليًا لله، لأن الأنبياء متفقون على أصول الدين، وهذا الضابط ضابط مفيد في التفريق بين ما يجري على يد النبي من الآيات وما يجري على مدّعي النبوة وغيرهم من خوارق العادات، يُنظر لدعوته، هل هي دعوة توافق ما دعا إليه الأنبياء والمرسلون في الأصول؟ فإن الأنبياء والمرسلين متفقون في الأصول، فإن ادّعى خلاف ذلك فليس صادقًا ولا نبيًا.

ف (الشرعة) هي الشريعة قال الله تعالى: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا}

المنهاج: هو مثل الماء يكون في النهر، والشرعة مكان يُشرب منه، لذا قال ابن عباس: لكلٍ سبيلٌ وسنة، ففسر الشرعة بالسبيل وفسر المنهاج بالسنة، فهي واسعة وهكذا النهر إذا وُجد فيه الماء، والأنبياء مختلفون في هذا وإنما متفقون في أصل الدين، وكلام ابن عباس –رضي الله عنهما– ذكره البخاري بعد ما ذكر هذه الآية.

وقال تعالى: {ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون}. و (المنهاج) هو الطريق قال تعالى: {وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا}.

فالشرعة بمنزلة الشريعة للنهر والمنهاج هو الطريق الذي يسلك فيه والغاية المقصودة هي حقيقة الدين وهي عبادة الله وحده لا شريك له وهي حقيقة دين الإسلام فإن يستسلم العبد لله رب العالمين لا يستسلم لغيره فمن استسلم له ولغيره كان مشركا والله لا يغفر أن يشرك به ومن لم يستسلم لله بل استكبر عن عبادته كان ممن قال الله فيه: {إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين}.

ودين الإسلام هو دين الأولين والآخرين من النبيين والمرسلين وقوله تعالى: {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه} عام في كل زمان ومكان. فنوح

وإبراهيم ويعقوب والأسباط وموسى وعيسى والحواريون كلهم دينهم الإسلام الذي هو عبادة الله وحده لا شريك له

إذن لفظ الإسلام يُطلق ويُراد به الإسلام العام وهو التوحيد والاستسلام لله، ومنه هذه الآية، ويُطلق بمعنى الإسلام الخاص وهو دين محمد -صلى الله عليه وسلم- كما قال تعالى: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا}، وقد ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-.

قال الله تعالى عن نوح: {يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت} إلى قوله: {وأمرت أن أكون من المسلمين} وقال تعالى: {ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين} {إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين} {ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون} وقال تعالى: {وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين} وقال السحرة: {ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين} وقال يوسف عليه السلام {توفني مسلما وألحقني بالصالحين} وقالت بلقيس: {وأسلمت مع سليمان لله رب العالمين} وقال تعالى: {يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار} وقال الحواريون {آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون}.

فدين الأنبياء واحد وإن تنوعت شرائعهم كما في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنا معشر الأنبياء ديننا واحد»، قال تعالى: {شرع لكم

من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه} وقال تعالى: {يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إني بما تعملون عليم} {وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون} {فتقطعوا أمرهم بينهم زبرا كل حزب بما لديهم فرحون}.

فصل:

وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أولياء الله تعالى على أن الأنبياء أفضل من الأولياء الذين ليسوا بأنبياء وقد رتب الله عباده السعداء المنعم عليهم أربع مراتب فقال تعالى: {ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا}.

وفضل هؤلاء على حسب ترتيبهم.

وفي الحديث: «ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد بعد النبيين والمرسلين أفضل من أبي بكر»

وأفضل الأنبياء والمرسلين بإجماع الصحابة هو محمد -صلى الله عليه وسلم- كما ثبت عند الحاكم أن عبد الله بن سلام -رضي الله عنه- قال: ما خلق الله خلقًا أكرم عليه من محمد، لا شمسًا ولا قمرًا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية كما في (مجموع الفتاوى): فدل هذا على أن الصحابة مجمعون على هذا.

وجاء في ذلك أثر عن عبد الله بن عمرو بن العاص لكن إسناده ضعيف ويُغني عنه ما جاء عن عبد الله بن سلام.

وأفضل الأمم أمة محمد صلى الله عليه وسلم. قال الله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس} وقال تعالى: {ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا} وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي في المسند: «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله»، وأفضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم هم القرن الأول.

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من غير وجه أنه قال: «خير القرون القرن الذي بعثت فيه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم».

القرن لغةً يُطلق على الحُقبة من الزمن ولا يُشترط أن يكون القرن مائة سنة، لذا الذي حققه شيخ الإسلام –رحمه الله– في حجية مذهب أهل المدينة، أن القرن الأول ينتهي بمضي أربعين عامًا، والقرن الثاني بثمانين عامًا، والقرن الثالث بعشرين ومائة، فبانتهاء سنة عشرين ومائة انتهت القرون المفضلة، قال: وذلك أن القرن يُنظر إلى أكثر أهله، فأكثر الصحابة ذهبوا في الأربعين الأولى، وأكثر التابعين ذهبوا في الأربعين الثانية، وأكثر أتباع التابعين ذهبوا في الأربعين الثالثة، وعلى هذا يُفسر الحديث.

وفي الصحيحين أيضا عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تسبوا أصحابي فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار أفضل من سائر الصحابة قال تعالى: {لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا وكلا وعد الله الحسنى} وقال تعالى: {والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه} والسابقون الأولون الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا والمراد بالفتح صلح الحديبية فإنه كان أول فتح مكة وفيه {أنزل الله تعالى {إنا فتحنا لك فتحا مبينا} {ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر} فقالوا يا رسول الله أوفتح هو قال: نعم}.

وأفضل السابقين الأولين الخلفاء الأربعة، أفضلهم أبو بكر ثم عمر وهذا هو المعروف عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان وأئمة الأمة وجماهيرها وقد دلت على ذلك دلائل بسطناها في (منهاج أهل السنة النبوية في نقض كلام أهل الشيعة والقدرية). وبالجملة اتفقت طوائف السنة والشيعة على أن أفضل هذه الأمة بعد نبيها واحد من الخلفاء ولا يكون أحد بعد الصحابة أفضل من جميع الصحابة، فأفضل أولياء الله تعالى أعظمهم معرفة بما جاء به الرسول واتباعا له كالصحابة الذين هم أكمل الأمة في معرفة دينه واتباعه

ذكر أفضل الأنبياء والمرسلين، ثم ذكر أفضل الصحابة، فدل هذا على أن أفضل الأولياء من أمة محمد صلى الله عليه وسلم الصحابة –رضي الله عنهم–، إذن من

ادعى الولاية وقد خالف طريقتهم فليس وليًا، ومن ادعى الولاية ولم يرجع إلى الكتاب والسنة فليس وليًا، ومن ادعى الولاية وخالف الأنبياء والمرسلين في أصل الدعوة إلى التوحيد وإفراد الله بالعبادة فليس وليًا ثم هد دليل على كذب ادعائه للنبوة لو ادعاها.

وأبو بكر الصديق أكمل معرفة بما جاء به وعملا به فهو أفضل أولياء الله فإذن كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم أفضل الأمم وأفضلها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وأفضلهم أبو بكر رضي الله عنه.
وقد ظن طائفة غالطة أن (خاتم الأولياء) يكون أفضل الأولياء قياسا على خاتم الأنبياء

يكون أفضل الأولياء يعني أن المتأخر أفضل من المتقدم.

ولم يتكلم أحد من المشايخ المتقدمين بخاتم الأولياء إلا محمد بن علي الحكيم الترمذي فإنه صنف مصنفا غلط فيه في مواضع ثم صار طائفة من المتأخرين يزعم كل واحد منهم أنه خاتم الأولياء ومنهم من يدعي أن خاتم الأولياء أفضل من خاتم الأنبياء من جهة العلم بالله وأن الأنبياء يستفيدون العلم بالله من جهته كما زعم ذلك ابن عربي صاحب كتاب (الفتوحات) وكتاب (الفصوص) فخالف الشرع والعقل مع مخالفة جميع أنبياء الله تعالى وأوليائه كما يقال لمن قال: فخر عليهم السقف من تحتهم لا عقل ولا قرآن.

وذلك أن الأنبياء أسبق في الزمان من أولياء هذه الأمة والأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام أفضل من الأولياء فكيف الأنبياء كلهم؟ والأولياء يستفيدون معرفة الله ممن يأتي بعدهم ويدعي أنه خاتم الأولياء وليس آخر الأولياء أفضلهم كما أن آخر الأنبياء أفضلهم؛

يعني الولي المتأخر استفاد ممن قبله الذين هم أتباع للأنبياء.

فإن فضل محمد صلى الله عليه وسلم ثبت بالنصوص الدالة على ذلك كقوله صلى الله عليه وسلم: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»، وقوله: «آتي باب الجنة فأستفتح فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك».

و ليلة المعراج رفع الله درجته فوق الأنبياء كلهم فكان أحقهم بقوله تعالى: {تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض}، إلى غير ذلك من الدلائل، والأنبياء كل منهم يأتيه الوحي من الله لا سيما ومحمد صلى الله عليه وسلم لم يكن في نبوته محتاجا إلى غيره فلم تحتج شريعته لا إلى سابق ولا إلى لاحق؛ بخلاف غيره، فإن المسيح أحالهم في أكثر الشريعة على التوراة، وشريعة التوراة جاء المسيح عليه السلام يكملها؛ ولهذا كان النصارى محتاجين إلى النبوات المتقدمة على المسيح: كالتوراة والزبور وتمام الأربع وعشرين نبوة

ذكر في القرآن خمسةً وعشرين نبيًا، وإذا أضيف إليهم المسيح عيسى تم العدد.

وكان الأمم قبلنا محتاجين إلى محدثين؛ بخلاف أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإن الله تعالى أغناهم به فلم يحتاجوا معه إلى نبي ولا إلى محدث؛ بل جمع له من الفضائل والمعارف والأعمال الصالحة ما فرقه في غيره من الأنبياء؛ فكان ما فضله الله به من الله بما أنزله إليه وأرسله إليه لا بتوسط بشر.

وهذا بخلاف الأولياء فإن كل من بلغه رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لا يكون وليا لله إلا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم، فكل ما حصل له من الهدى ودين الحق هو بتوسط محمد صلى الله عليه وسلم وكذلك من بلغته رسالة رسوله إليه لا يكون وليا لله إلا إذا اتبع ذلك الرسول الذي أرسله إليه.

ومن ادعى أن من هؤلاء الأولياء الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم من له طريق إلى الله لا يحتاج فيه إلى محمد صلى الله عليه وسلم فهذا كافر ملحد وإذا قال: أنا محتاج إلى محمد صلى الله عليه وسلم في علم الظاهر دون الباطن أو في علم الشريعة دون علم الحقيقة؛ فهو شر من اليهود والنصارى الذين قالوا: إن محمدا رسول الله إلى الأميين دون أهل الكتاب.

فإن أولئك آمنوا ببعض وكفروا ببعض فكانوا كفارا بذلك وكذلك هذا الذي يقول إن محمدا بعث بعلم الظاهر دون الباطن آمن ببعض ما جاء به وكفر ببعض فهو كافر وهو أكفر من أولئك؛ لأن علم الباطن الذي هو علم إيمان القلوب ومعارفها وأحوالها هو علم بحقائق الإيمان الباطنة وهذا أشرف من العلم بمجرد أعمال الإسلام الظاهرة.

فهو آمن ببعض وكفر ببعض، لكن قال: "بُعث بعلم الظاهر دون علم الباطن"، يعني جعل له العلم الأقل منزلة، وكفر بالعلم الأعلى منزلة وهو العلم الباطن، وسيفصل شيخ الإسلام وسيشير إلى أمثال هؤلاء.

فإذا ادعى المدعي أن محمدا صلى الله عليه وسلم إنما علم هذه الأمور الظاهرة دون حقائق الإيمان؛ وأنه لا يأخذ هذه الحقائق عن الكتاب والسنة فقد ادعى أن البعض الذي آمن به مما جاء به الرسول دون البعض الآخر وهذا شر ممن يقول: أؤمن ببعض وأكفر ببعض ولا يدعي أن هذا البعض الذي آمن به أدنى القسمين.

الذي يقول إن النبي –صلى الله عليه وسلم– يُتبّع في علم الظاهر دون الباطن، هو آمن ببعض وكفر ببعض، لكن المشكل أنه جعل النبي –صلى الله عليه وسلم– آمن بشيء أدنى وهو علم الظاهر دون علم الباطن، ومن هاهنا صار أكفر.

وهذا الكلام الذي يذكره شيخ الإسلام لا يزال موجودًا لكن بفضل الله أولًا ثم بدعوة شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ونصرة الإمام محمد بن سعود، ثم بقيام هذه الدولة السعودية وقوتها إلى هذا الوقت، له أثر كبير في إضعاف هذا، وإلا ففي جزيرة العرب بل وفي السعودية من يعتقد مثل هذا، لكن أخزاه الله بقوة السلطان، فلولا الله بفضله وكرمه ثم بقوة السلطان الذي من الله به علينا، وكان نصيرًا لدعوة التوحيد لرأيتم الشيء العجب، وهذا ولله الحمد أثّر في دول الخليج، بل في العالم الإسلامي، بل حتى في غير العالم الإسلامي، وإن كان التأثير يقل من بلد لبلد، إلا أنه ولله الحمد قل القول بوحدة الوجود كثيرًا، وفي المقابل علماء السنة قد عزّوا ولله الحمد، فصار لدعوتهم أثر في الشرق والغرب، وإن كان أصحاب هذه المقالات موجودين ولا يستهان بهم.

وهؤلاء الملاحدة قد يدعون أن (الولاية) أفضل من (النبوة) ويلبسون على الناس فيقولون: ولايته أفضل من نبوته وينشدون:

مقام النبوة في برزخ *** فويق الرسول ودون الولي

يعني أرادوا أن يقولوا: إن النبي –صلى الله عليه وسلم- قد أخذ المنزلة الأعلى لأنه ولي لا لأنه نبي، وإذا اقتنعت بهذا فتحوا الباب ثم قالوا: إن الولي الفلاني أفضل من ذاك النبي لأن فيه ولاية، بخلاف ذاك النبي،..وهكذا.

ويقولون نحن شاركناه في ولايته التي هي أعظم من رسالته وهذا من أعظم ضلالهم فإن ولاية محمد صلى الله عليه وسلم لم يماثله فيها أحد لا إبراهيم ولا موسى فضلا عن أن يماثله هؤلاء الملاحدة.

صدق –رحمه الله- لأنه أفضل البشر –صلى الله عليه وسلم-.

وكل رسول نبي وكل نبي ولي فالرسول نبي ولي. ورسالته متضمنة لنبوته ونبوته متضمنة لولايته فكيف تكون ولايته المتضمنة لنبوته أفضل من نبوته الداخلة في ولايته، وإذا قدروا مجرد إنباء الله إياه بدون ولايته لله فهذا تقدير ممتنع فإنه حال إنباء الله إياه ممتنع أن يكون إلا وليا لله فلا تكون نبوة مجردة عن ولايته ولو قدرت مجردة لم يكن أحد مماثلا للرسول في ولايته لله تعالى.

وهؤلاء قد يقولون – كما يقوله صاحب (الفصوص) ابن عربي –: إنهم يأخذون من المعدن الذي يأخذ منه الملك الذي يوحى به إلى الرسول؛ وذلك أنهم

اعتقدوا عقيدة الملاحدة المتفلسفة ثم أخرجوها في قالب المكاشفة وذلك أن المتفلسفة قالوا: إن الأفلاك قديمة أزلية لها علة تتشبه بها كما يقوله أرسطو وأتباعه؛ أولها موجب بذاته كما يقوله متأخروهم: كابن سينا وأمثاله

حاول ابن سينا وغيره أن يجعلوا هناك فلسفة ملبسة بلباس الدين، فأنكر ابن سينا وغيره البعث والنشور، لكن للأبدان لا للأرواح، وأنكروا علم الله، قالوا: هو يعلم الكليات لا الجزئيات، وحقيقة قولهم يرجع إلى قول الفلاسفة الأُول، لذا في أكثر من موضع تكلم عنه شيخ الإسلام وقال ابن القيم: هو شيخ الملاحدة، هذا الطبيب ابن سينا المعظم في الطب وهو مبرز فيه، لكن هذا شيء ودين الله شيء آخر.

فيدور الفلاسفة المنتسبون للإسلام مع أصحاب وحدة الوجود ومع الحلولية ومع من دونهم من الصوفية الضّلال، يجتمع الجميع على إسقاط التكاليف الشرعية، ويختلفون في نسبة الإسقاط، كما سيأتي بيانه -إن شاء الله-، لذا سيطيل شيخ الإسلام الكلام عن الفلاسفة لأن نتيجة قولهم إسقاط اتباع الرسول -صلى الله عليه وسلم- وكل الصوفية الضّلال الذين يعظمون الأولياء ويجعلونهم بابًا إلى الله يجتمع هم وإياهم في هذا القاسم المشترك وهو إسقاط اتباع النبي -صلى الله عليه وسلم- بحجج تختلف، وكلها ساقطة ونتيجتها محاولة الهروب من القيود الشريعة.

ثم في المقابل هذا الذي جرد نفسه عن القيود الشرعية جعلوه وليًا وصالحًا.

ولا يقولون إنها لرب خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام ولا خلق الأشياء بمشيئته وقدرته ولا يعلم الجزئيات؛ بل إما أن ينكروا علمه مطلقا كقول أرسطو؛ أو يقولوا إنما يعلم من الأمور المتغيرة كلياتها كما يقوله ابن سينا، وحقيقة هذا القول إنكار علمه بها؛ فإن كل موجود في الخارج فهو معين جزئي، الأفلاك كل منها معين جزئي وكذلك جميع الأعيان وصفاتها وأفعالها فمن لم يعلم إلا الكليات لم يعلم شيئا من الموجودات والكليات إنما توجد كليات في الأذهان لا في الأعيان.

تقدم أن هذا استطراد ولا أحب أن يأخذ مثل هذا منا وقتًا، لكن إذا سمعت شيخ الإسلام أو غيره يقولون: "الأذهان"، و"الخارج"، ..المراد بالخارج: الواقع، والمراد بـ"الأذهان" ما يتصور الإنسان في ذهنه، وتصورات الذهن لا حد لها، فيقول: هذه الكليات، وأن يوجد شيء لا يتصف بصفة، هذا لا يوجد في الواقع، بعبارتهم في "الخارج"، وإنما قد يتصور في الذهن لأن تصورات الذهن لا حد لها. لذا يقول: "لم يعلم شيئًا من الموجودات إلا الكليات، والكليات لا توجد إلا في الأذهان.. "إلخ، أي الوجود المطلق بلا قيود وصفات، فالذهن يتخيل ما شاء بلا أي صفة وهذا لا يوجد في "الخارج" أي الواقع وإنما يوجد في الأذهان، والفلاسفة هؤلاء المجرمون إنما يُثبتون من الصفات الإضافية، وحقيقة قولهم أنه ليس لله صفة، لأن الصفة الإضافية ليست صفة، وإنما صفة بالاعتبار، كالأبوّة، لا يكون الرجل أبًا حتى يكون له ولد، فإذن هي صفة إضافية.

والكلام على هؤلاء قد بُسط في موضع آخر في (درء تعارض العقل والنقل) وغيره. فإن كفر هؤلاء أعظم من كفر اليهود والنصارى بل ومشركي العرب فإن جميع هؤلاء يقولون إن الله خلق السماوات والأرض وإنه يخلق المخلوقات بمشيئته وقدرته، وأرسطو ونحوه من متفلسفة اليونان كانوا يعبدون الكواكب والأصنام وهم لا يعرفون الملائكة ولا الأنبياء وليس في كتب أرسطو ذكر شيء من ذلك وإنما غالب علم القوم الأمور الطبيعية، وأما الأمور الإلهية فكلامهم فيها قليل الصواب كثير الخطأ واليهود والنصارى بعد النسخ والتبديل أعلم بالإلهيات منهم بكثير؛ ولكن متأخريهم كابن سينا أرادوا أن يوافقوا بين كلام أولئك وبين ما جاءت به الرسل؛ فأخذوا أشياء من بعض أصول الجهمية والمعتزلة وركبوا منهم ومن قول أولئك مذهبا قد يعتزي إليه متفلسفة أهل الكتاب؛ وفيه من الفساد والتناقض ما قد نبهنا على بعضه في غير هذا الموضع. وهؤلاء لما رأوا أن أمر الرسل كموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين قد أبهر العالم واعترفوا بأن الناموس

المراد بالناموس: أي الدين.

الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أعظم ناموس طرق العالم ووجدوا الأنبياء قد ذكروا الملائكة والجن أرادوا أن يجمعوا بين ذلك وبين أقوال سلفهم اليونان الذين هم من أبعد الخلق عن معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأولئك قد أثبتوا عقولا عشرة يسمونها (المجردات) و(المفارقات).

وأصل ذلك مأخوذ من مفارقة النفس للبدن، فسموا تلك (المفارقات) لمفارقتها المادة وتجردها عنها. وأثبتوا للأفلاك لكل فلك نفسا وأكثرهم جعلوها أعراضا وبعضهم جعلها جواهر.

وهذه (المجردات) التي أثبتوها ترجع عند التحقيق إلى أمور موجودة في الأذهان لا في الأعيان

ليؤكد، لأنه لا يوجد شيء بلا صفات، لا العقل الأول الذي اعتقدوه، ولا العقل الثاني إلى أن وصلوا إلى العقل العاشر، وزعموا أنه فعال.

كما أثبت أصحاب فيثاغورس أعدادًا مجردة، وكما أثبت أصحاب أفلاطون المُثل الأفلاطونية المجردة، وأثبتوا هيولى مجردة عن الصورة ومدة وخلاء مجردين وقد اعترف حذاقهم بأن ذلك إنما يتحقق في الأذهان لا في الأعيان؛ فلما أراد هؤلاء المتأخرون منهم كابن سينا أن يثبت أمر النبوات على أصولهم الفاسدة زعموا أن النبوة لها خصائص ثلاثة من اتصف بها فهو نبي: أن تكون له قوة علمية يسمونها القوة القدسية ينال بها من العلم بلا تعلم، وأن يكون له قوة تخيلية تخيل له ما يعقله في نفسه بحيث يرى في نفسه صورا أو يسمع في نفسه أصواتا كما يراه النائم ويسمعه ولا يكون لها وجود في الخارج وزعموا أن تلك الصور هي ملائكة الله وتلك الأصوات هي كلام الله تعالى، وأن يكون له قوة فعالة يؤثر بها في هيولى العالم

إذن، عندهم النبوة مكتسبة، ليست اصطفاءً من الله سبحانه، {وربك يخلق ما يشاء ويختار}،وهذا قول ملاحدة.

وجعلوا معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء وخوارق السحرة هي من قوى النفس فأقروا من ذلك بما يوافق أصولهم من قلب العصا حية دون انشقاق القمر ونحو ذلك؛ فإنهم ينكرون وجود هذا.

فإذا قيل لهم: قد ذُكر في القرآن!، قالوا: هذا خطاب للعامة، والعامة لا يُمكن أن يستقيموا إلا بمثل هذا، والحقيقة أن مثل هذا ليس مرادًا.

وقد بسطنا الكلام على هؤلاء في مواضع، وبينا أن كلامهم هذا من أفسد الكلام وأن هذا الذي جعلوه من خصائص النبي تحصّل ما هو أعظم منه لآحاد العامة ولأقل أتباع الأنبياء وأن الملائكة التي أخبرت بها الرسل أحياء ناطقون أعظم مخلوقات الله وهم كثيرون كما قال تعالى: {وما يعلم جنود ربك إلا هو} وليسوا عشرة وليسوا أعراضا ولا سيما وهؤلاء يزعمون أن الصادر الأول هو (العقل الأول) وعنه صدر كل ما سواه وهو عندهم رب كل ما سوى الله، وكذلك كل عقل رب ما دونه، والعقل الفعال العاشر رب كل ما تحت فلك القمر.
وهذا مما يُعلم فساده بالاضطرار من دين الرب فليس أحد من الملائكة مبدع لكل ما سوى الله.

فالأول رب لما بعده، والثاني رب لما بعده إلى العاشر.

الشاهد من إيراد هؤلاء أنهم هربوا من تكاليف الشرع بمثل هذا، هذا هو القاسم المشترك والجامع بينهم وبين من سيذكرهم من الصوفية ومن الملاحدة القائلين بوحدة الوجود وبالحلول..إلخ، ومن بدعهم ومن دونهم في الضلال ممن هربوا من التكاليف الشرعية.

وهؤلاء يزعمون أنه العقل الأول هو العقل المذكور في حديث يروى: «أن أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل فقال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي ما خلقت خلقا أكرم علي منك فبك آخذ وبك أعطي ولك الثواب وعليك العقاب».

لا إله إلا الله! الآن قد عرفوا الأحاديث؟

ويسمونه أيضا (القلم) لما رأوا أنه قد روي: «إن أول ما خلق الله القلم»، والحديث الذي ذكروه في العقل كذب موضوع عند أهل المعرفة بالحديث كما ذكر ذلك أبو حاتم البستي وأبو الحسن الدارقطني وابن الجوزي وغيرهم.

وليس هو في شيء من دواوين الحديث التي يعتمد عليها ومع هذا فلفظه لو كان ثابتا فهو حجة عليهم؛ فإن لفظه: «أول ما خلق الله تعالى العقل قال له – ويروى – لما خلق الله العقل قال له»، فمعنى الحديث أنه خاطبه في أول أوقات خلقه؛ ليس معناه أنه أول المخلوقات و أول منصوب على الظرف كما في اللفظ الآخر (لما) وتمام الحديث: «ما خلقت خلقا أكرم علي منك»، فهذا

يقتضي أنه خلق قبله غيره ثم قال: «فبك آخذ وبك أعطي ولك الثواب وعليك العقاب».

فذكر أربعة أنواع من الأعراض وعندهم أن جميع جواهر العالم العلوي والسفلي صدر عن ذلك العقل. فأين هذا من هذا.

وسبب غلطهم أن لفظ (العقل) في لغة المسلمين ليس هو لفظ العقل في لغة هؤلاء اليونانيين، فإن (العقل) في لغة المسلمين مصدر عقل يعقل عقلا، كما في القرآن {وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير} {إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون} {أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها}.

ويراد (بالعقل) الغريزة التي جعلها الله تعالى في الإنسان يعقل بها. وأما أولئك ف (العقل) عندهم جوهر قائم بنفسه كالعاقل وليس هذا مطابقا للغة الرسول صلى الله عليه وسلم والقرآن، وعالم الخلق عندهم كما يذكره أبو حامد عالم الأجسام، وأما العقول والنفوس فيسميها عالم الأمر وقد سمى (العقل) عالم الجبروت (والنفوس) عالم الملكوت؛ و (الأجسام)عالم الملك ويظن من لم يعرف لغة الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يعرف معاني الكتاب والسنة أن ما في القرآن والسنة من ذكر الملك والملكوت والجبروت موافق لهذا وليس الأمر كذلك.

وهؤلاء يلبسون على المسلمين تلبيسا كثيرا كإطلاقهم أن (الفَلَكَ) محدث أي معلول، مع إنه قديم عندهم والمحدث لا يكون إلا مسبوقا بالعدم ليس في لغة العرب ولا في لغة أحد أنه يسمى القديم الأزلي محدثا والله قد أخبر أنه خالق كل شيء وكل مخلوق فهو محدث وكل محدث كائن بعد أن لم يكن؛ لكن ناظرهم بعض أهل الكلام من الجهمية والمعتزلة مناظرة قاصرة لم يعرفوا بها ما أخبر به

الرسل ولا أحكموا فيها قضايا العقول فلا للإسلام نصروا ولا لأعدائه كسروا وشاركوا أولئك في بعض قضاياهم الفاسدة ونازعوهم في بعض المعقولات الصحيحة فصار قصور هؤلاء في العلوم السمعية والعقلية من أسباب قوة ضلال أولئك كما قد بسط في غير هذا الموضع.

وهؤلاء المتفلسفة قد يجعلون (جبريل) هو الخيال الذي يتشكل في نفس النبي صلى الله عليه وسلم والخيال تابع للعقل فجاء الملاحدة المتصوفة الذين شاركوا هؤلاء الملاحدة المتفلسفة وزعموا أنهم (أولياء الله) وأن الولي أفضل من النبي وأنهم يأخذون عن الله بلا واسطة كابن عربي صاحب (الفتوحات) و (الفصوص) فقال: إنه يأخذ من المعدن الذي أخذ منه الملك الذي يوحي به إلى رسول الله، و (المعدن) عند هؤلاء هو العقل و (الملك) هو الخيال و (الخيال) تابع للعقل وهو بزعمه يأخذ عن الذي هو أصل الخيال والرسول يأخذ عن الخيال؛ فلهذا صار عند نفسه فوق النبي ولو كان خاصًا بالنبي ما ذكروه لم يكن هو من جنسه فضلا عن أن يكون فوقه فكيف وما ذكروه يحصل لآحاد المؤمنين والنبوة أمر وراء ذلك فإن ابن عربي وأمثاله وإن ادعوا أنهم من الصوفية فهم من صوفية الملاحدة الفلاسفة ليسوا من صوفية أهل الكلام.

صدق –رحمه الله–، وهذا تنبيه مهم للغاية، فابن عربي وأمثاله من صوفية الملاحدة الفلاسفة، الذين يرجع قولهم إلى إسقاط التكاليف، وليسوا من صوفية أهل الكلام كصوفية الأشاعرة وغيرهم.

فضلا عن أن يكونوا من مشايخ أهل الكتاب والسنة، كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم وأبي سليمان الداراني ومعروف الكرخي والجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستري وأمثالهم.

والله سبحانه وتعالى قد وصف الملائكة في كتابه بصفات تباين قول هؤلاء كقوله تعالى: {وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون} {لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون} {يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون} {ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين} وقال تعالى: {وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى} وقال تعالى: {قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير} {ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له} وقال تعالى: {وله من في السماوات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون} {يسبحون الليل والنهار لا يفترون}.

وقد أخبر أن الملائكة جاءت لإبراهيم عليه السلام في صورة البشر وأن الملك تمثل لمريم بشرا سويا وكان جبريل عليه السلام يأتي النبي صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي وفي صورة أعرابي فيراهم الناس كذلك.

وقد وصف الله تعالى جبريل عليه السلام بأنه ذو قوة عند ذي العرش مكين؛ مطاع ثم أمين وأن محمدا صلى الله عليه وسلم رآه بالأفق المبين ووصفه بأنه {شديد القوى} {ذو مرة فاستوى} {وهو بالأفق الأعلى} {ثم دنا فتدلى} {فكان قاب قوسين أو أدنى} {فأوحى إلى عبده ما أوحى} {ما كذب الفؤاد ما رأى} {أفتمارونه على ما يرى} {ولقد رآه نزلة أخرى} {عند سدرة المنتهى}

{عندها جنة المأوى} {إذ يغشى السدرة ما يغشى} {ما زاغ البصر وما طغى} {لقد رأى من آيات ربه الكبرى}.

وقد ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لم ير جبريل في صورته التي خلق عليها غير مرتين، يعني المرة الأولى بالأفق الأعلى والنزلة الأخرى عند سدرة المنتهى، ووصف جبريل عليه السلام في موضع آخر بأنه الروح الأمين ووصفه بأنه روح القدس إلى غير ذلك من الصفات التي تبين أنه من أعظم مخلوقات الله تعالى الأحياء العقلاء وأنه جوهر قائم بنفسه ليس خيالا في نفس النبي صلى الله عليه وسلم كما زعم هؤلاء الملاحدة المتفلسفة المدعين ولاية الله وأنهم أعلم من الأنبياء.

وغاية تحقيق هؤلاء إنكار (أصول الإيمان)، فإن أصول الإيمان أن يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وحقيقة أمرهم جحد الخالق فإنهم جعلوا وجود المخلوقات هو وجود الخالق وقالوا: الوجود واحد ولم يميزوا بين الواحد بالعين والواحد بالنوع فإن الموجودات تشترك في مسمى الوجود كما يشترك الناس في مسمى الإنسان والحيوانات في مسمى الحيوان ولكن هذا المشترك الكلي لا يكون مشتركا كليا إلا في الذهن وإلا فالحيوانية القائمة بهذا الإنسان ليست هي الحيوانية القائمة بالفرس ووجود السماوات ليس هو بعينه وجود الإنسان فوجود الخالق جل جلاله مباين لوجود مخلوقاته.

المقصود أن الحيوانية في الإنسان والحيوان تشترك في معنًى كلّي، أما من حيث التفصيل كلٌ له حيوانية تليق به، فجعلُ الجميع مشتركًا هذا إنما يتصور في الأذهان

بأن يُفصل عن الحيوان حيوانيته بحيث يصبح الجميع مشتركًا في ذلك، هذا في الأذهان لا في الخارج أي في الواقع.

فهم يريديون أن يُرجعوا الوجود لواحد، فإذا أرجعوا الوجود لواحد رجعوا إلى عقيدة وحدة الوجود والاتحادية.

ومن المعلوم أن الله موجود إلا أن وجوده واجب وأن المخلوق موجود إلا أن وجوده جائز ويقال ممكن، فالاشتراك في معنى الوجود لا يقتضي التساوي في الوجود وأن يكون الموجود واحدًا.

وحقيقة قولهم قول فرعون الذي عطل الصانع فإنه لم يكن ينكر هذا الوجود المشهود؛ لكن زعم أنه موجود بنفسه لا صانع له وهؤلاء وافقوه في ذلك؛ لكنهم زعموا بأنه هو الله فكانوا أضل منه

وسيبين أنهم أشد من فرعون، ففرعون يقول: هذا الوجود أوجد نفسه، ولم ينسبه إلى الله -عز وجل-.

وإن كان قوله هذا هو أظهر فسادا منهم ولهذا جعلوا عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله وقالوا: لما كان فرعون في منصب التحكم صاحب السيف والحكم وإن جاز في العرف الناموسي كذلك قال أنا ربكم الأعلى - أي وإن كان الكل ربًا بنفسه فأنا ربكم الأعلى منكم بما أعطيته في الظاهر من الحكم فيكم".

قالوا: ولما علمت السحرة صدق فرعون فيما قاله أقروا له بذلك فقالوا له: {فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا} قالوا: فصح قول فرعون

{أنا ربكم الأعلى} وكان فرعون عين الحق، ثم أنكروا حقيقة اليوم الآخر فجعلوا أهل النار يتنعمون كما يتنعم أهل الجنة فصاروا كافرين بالله وباليوم الآخر وبملائكته وكتبه ورسله مع دعواهم أنهم خلاصة الخاصة من أهل ولاية الله وأنهم أفضل من الأنبياء وأن الأنبياء إنما يعرفون الله من مشكاتهم.

وليس هذا موضع بسط بيان إلحاد هؤلاء؛ ولكن لما كان الكلام في أولياء الله والفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان وكان هؤلاء من أعظم الناس ادعاء لولاية الله وهم من أعظم الناس ولاية للشيطان نبهنا على ذلك. ولهذا عامة كلامهم هنا إنما هو في التخيلات الشيطانية ويقولون ما قاله صاحب الفتوحات: بأن أرض الحقيقة ويقولون هي أرض الخيال. فيعترف بأن الحقيقة التي يتكلم فيها هي خيال، والخيال هو محل تصرف الشيطان فإن الشيطان يخيل للإنسان الأمور بخلاف ما هي عليه قال تعالى: {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين} {وإنهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون} {حتى إذا جاءنا قال يا ليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين} {ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنكم في العذاب مشتركون}.

وقال تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا} إلى قوله: - {يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا}. وقال تعالى: {وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم} وقال تعالى: {وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني

جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب}.

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أنه رأى جبريل يزع الملائكة والشياطين، إذا رأت ملائكة الله التي يؤيد بها عباده هربت منهم والله يؤيد عباده المؤمنين بملائكته.

وقال تعالى: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا} وقال تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها}. وقال تعالى: {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها} وقال تعالى: {إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين} {بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين}.

وهؤلاء تأتيهم أرواح فتخاطبهم وتتمثل لهم وهي جن وشياطين فيظنونها ملائكة كالأرواح التي تخاطب من يعبد الكواكب والأصنام وكان أول ما ظهر من هؤلاء في الإسلام: المختار بن أبي عبيد الثقفي الذي أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في صحيحه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سيكون في ثقيف كذاب ومبير»، فكان الكذاب: المختار بن أبي عبيد الثقفي، وكان المبير: الحجاج بن يوسف.

وقيل لابن عمر وابن عباس: إن المختار يزعم أنه ينزل إليه فقالا: صدق قال الله تعالى: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين} {تنزل على كل أفاك أثيم}.

وقال الآخر وقيل له إن المختار يزعم أنه يوحى إليه فقال: قال الله تعالى: {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم}.

ومن هذه الأرواح الشيطانية هي الروح الذي يزعم صاحب (الفتوحات) أنه ألقي إليه ذلك الكتاب؛

ويزعم ابن عربي الطائي -ويصح بالتعريف والتنكير وإن كان مشتهرًا بالتنكير- يزعم أن كتاب الفتوحات نزل عليه من الله، ويقول ابن تيمية: هذا إذا كان صادقًا فيكون أتت به الشياطين.

ولهذا يذكر أنواعا من الخلوات بطعام معين وحال معين وهذه مما يفتح لأصحابها اتصال بالجن والشياطين فيظنون ذلك من كرامات الأولياء وإنما هو من الأحوال الشيطانية.
وأعرف من هؤلاء أعدادًا ومنهم من كان يحمل في الهواء إلى مكان بعيد ويعود ومنهم من كان يؤتى بمال مسروق تسرقه الشياطين وتأتيه به

وشيخ الإسلام يتكلم عمن يعرف ولا ينقل عن غيره -رحمه الله-، وقبل أيام حصل لقاء في قناة مع أحد الصوفية الفجرة في بلادنا هنا، فاعترف -وأنا لا أدري هل يتكلم عن نفسه أو عن أصحابه-، بالخطوة وأنهم يذهبون إلى مكة ويعودون.

ومنهم من كانت تدله على السرّاق بجعل يحصل له من الناس أو بعطاء يعطونه إذا دلهم على سرقاتهم ونحو ذلك.
ولما كانت أحوال هؤلاء شيطانية كانوا مناقضين للرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم

وهذا يستفاد منه أن من الفروق بين الولي ومن تلبّس بالولاية وليس كذلك حقيقة دعوته، لما كان التنزل من الشياطين صارت دعوتهم مخالفة لدعوة الرسل وإنما موافقة لحال الشياطين.

وقد أخذنا قبلُ أن هذا ينفع في التفريق بين من يدّعي النبوة وليس نبيًا، فقد أتى بشيء خالف به الرسل قبل.

كما يوجد في كلام صاحب (الفتوحات المكية) و (الفصوص) وأشباه ذلك يمدح الكفار مثل قوم نوح وهود وفرعون وغيرهم ويتنقص بالأنبياء: كنوح وإبراهيم وموسى وهارون ويذم مشايخ المسلمين المحمودين عند المسلمين: كالجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستري وأمثالهما، ويمدح المذمومين عند المسلمين: كالحلاج ونحوه كما ذكره في تجلياته الخيالية الشيطانية؛ فإن الجنيد – قدس الله روحه – كان من أئمة الهدى فسئل عن التوحيد فقال: (التوحيد) إفراد الحدوث عن القدم، فبين أن التوحيد أن يميز بين القديم والمحدث، أي بين الخالق والمخلوق.

وصاحب (الفصوص) أنكر هذا؛ وقال في مخاطبته الخيالية الشيطانية له: يا جنيد هل يميز بين المحدث والقديم إلا من يكون غيرهما؟

لأن هذا الخبيث ابن عربي الطائي وقد هلك أهلك الله فكره ودعوته وكتبه، $لا يُفرّق بين الموجودات، فيجعل الوجود واحدًا، ينبغي أن نعلم أن هناك فرقًا بين وحدة الوجود، ويقال: الاتحادية، وبين الحلولية، فإن مقتضى الحلولية أن هناك حالًا ومحلولًا فيه، أي أن يكون الموجود شيئين، أما الاتحادية ووحدة الوجود

فالوجود شيء واحد، فإذا كان عندك كأس ووضعت فيه ماء هذا هو اعتقاد الحلولية، فيعتقدون أن الباري حل في المخلوقات –والعياذ بالله–، وأكفر منهم القائلون بوحدة الوجود أو الاتحادية وهم اسمان لمسمى واحد، ويقولون الوجود واحد كالماء إذا مزج وخلط به اللبن، فإنهما يكونان شيئًا واحدًا، وهذا هو فكر ابن عربي الطائي.

فخطّأ الجنيد في قوله: (إفراد المحدث عن القدم)؛ لأن قوله هو: إن وجود المحدث هو عين وجود القديم كما قال في (فصوصه): ومن أسمائه الحسنى العلي، على من؟ وما ثم إلا هو وعن ماذا؟ وما هو إلا هو فعلوه لنفسه وهو عين الموجودات فالمسمى محدثات هي العلية لذاته وليست إلا هو. إلى أن قال: هو عين ما بطن وهو عين ما ظهر وما ثم من يراه غيره وما ثم من ينطق عنه سواه وهو المسمى أبو سعيد الخراز وغير ذلك من الأسماء المحدثات.

لاحظ أن ابن عربي صاحب هذا الفكر قد اغتر به خلق كثير وعظّموه، وقالوا هذه من ألفاظ الصوفية التي يريدون بها غير المعنى الظاهر، وممن كان يُحسن الظن به شيخ الإسلام ابن تيمية، وذكر هذا عن نفسه كما في (مجموع الفتاوى)، إلى أن تبيّن في أمره ونظر وعلم أنه يقول بقولٍ كفري، وأنه أتى بهذه الألفاظ للتدليس والتلبيس.

فيقال لهذا الملحد: ليس من شرط المميز بين الشيئين بالعلم والقول أن يكون ثالثا غيرهما فإن كل واحد من الناس يميز بين نفسه وغيره وليس هو ثالث فالعبد

يعرف أنه عبد ويميز بين نفسه وبين خالقه والخالق جل جلاله يميز بين نفسه وبين مخلوقاته ويعلم أنه ربهم وأنهم عباده كما نطق بذلك القرآن في غير موضع والاستشهاد بالقرآن عند المؤمنين الذين يقرون به باطنا وظاهرا.
وأما هؤلاء الملاحدة فيزعمون ما كان يزعمه التلمساني منهم – وهو أحذقهم في إلحادهم – لما قرئ عليه (الفصوص) فقيل له: إن القرآن يخالف فصوصكم، فقال: القرآن كله شرك وإنما التوحيد في كلامنا.

قاتله الله، لا إله إلا الله، أعوذ بالله، وقريب من هذا قول الأشاعرة: "ظاهر القرآن كفر"، نصوا هكذا أن الأخذ بظواهر القرآن كفر وردة فهم قريبون منهم من جهة أنهم اشتركوا في هذا الباب، وعلى إثر هذا سمى الرازي كتاب (التوحيد) لابن خزيمة كتاب الشرك.

فقيل له: فإذا كان الوجود واحدا فلم كانت الزوجة حلالا والأخت حراما؟ فقال: الكل عندنا حلال ولكن هؤلاء المحجوبون قالوا حرام فقلنا حرام عليكم.

أعوذ بالله، يعني من باب مسايرة العوام، وإلا الكل حلال، لأن الكل واحد، لاحظ اشتركوا هم والفلاسفة في إسقاط التكاليف، لذا سماهم ابن تيمية بصوفية الفلاسفة.

وهذا مع كفره العظيم متناقض ظاهرًا، فإن الوجود إذا كان واحدا فمن المحجوب ومن الحاجب؟ ولهذا قال بعض شيوخهم لمريده: من قال لك: إن في الكون سوى الله فقد كذب. فقال له مريده: فمن هو الذي يكذب؟

وقالوا لآخر: هذه مظاهر. فقال لهم: المظاهر غير الظاهر أم هي هو؟ فإن كانت غيرها فقد قلتم بالتثنية وإن كانت إياها فلا فرق.

وقد بسطنا الكلام على كشف أسرار هؤلاء في موضع آخر وبينا حقيقة قول كل واحد منهم وأن صاحب (الفصوص) يقول المعدوم شيء؛ ووجود الحق قاض عليها فيفرق بين الوجود والثبوت.

والمعتزلة الذين قالوا: المعدوم شيء ثابت في الخارج مع ضلالهم خير منه فإن أولئك قالوا: إن الرب خلق لهذه الأشياء الثابتة في العدم وجودا ليس هو وجود الرب. وهذا زعم أن عين وجود الرب قاضٍ عليها فليس عنده وجود مخلوق مباين لوجود الخالق وصاحبه الصدر القونوي يفرق بين المطلق والمعين لأنه كان أقرب إلى الفلسفة فلم يقر بأن المعدوم شيء؛ لكن جعل الحق هو الوجود المطلق وصنف (مفتاح غيب الجمع والوجود).

وهذا القول أدخل في تعطيل الخالق وعدمه فإن المطلق بشرط الإطلاق – وهو الكلي العقلي لا يكون إلا في الأذهان لا في الأعيان والمطلق لا بشرط وهو الكلي الطبيعي – وإن قيل إنه موجود في الخارج فلا يوجد في الخارج إلا معين وهو جزء من المعين عند من يقول بثبوته في الخارج فيلزم أن يكون وجود الرب إما منتفيًا في الخارج وإما أن يكون جزءا من وجود المخلوقات وإما أن يكون عين وجود المخلوقات.

أظن قوله "وجود الرب إما" "منتفيًا"، لأنها الخارج أي الواقع، يكون منتفيًا أو يكون جزءً من وجود المخلوقات، واحتمال أن يستقيم "متيقنًا" في الخارج، يعني يوجد هو وحده في الخارج أو جزء منه أو يوجد في غيره، لأنه محتمل هكذا وهكذا.

وهل يخلق الجزء الكلي أم يخلق الشيء نفسه؟ أم العدم يخلق الوجود؟ أو يكون بعض الشيء خالقا لجميعه. وهؤلاء يفرون من لفظ (الحلول) لأنه يقتضي حالا ومحلا ومن لفظ (الاتحاد)

تقدم معنى الحلول وقد أشار لهذا المعنى، وهو أن الحلول يقتضي أن الوجود شيئان.

لأنه يقتضي شيئين اتحد أحدهما بالآخر وعندهم الوجود واحد. ويقولون: النصارى إنما كفروا لما خصصوا المسيح أنه هو الله ولو عمموا لما كفروا.

أعوذ بالله، لو قالوا إن الخلق كلهم هم الله والله هو جميع الخلق –والعياذ بالله– لم يكفروا!

وكذلك يقولون في عُبّاد الأصنام: إنما أخطئوا لما عبدوا بعض المظاهر دون بعض فلو عبدوا الجميع لما أخطئوا عندهم. فالعارف المحقق عندهم لا يضره عبادة الأصنام. وهذا مع ما فيه من الكفر العظيم ففيه ما يلزمهم دائما من التناقض لأنه يقال لهم: فمن المخطئ؟

فإذا قال صاحب وحدة الوجود لغيره: أخطأت، وهو يقول: الله هو المخلوق، والمخلوق هو الله، فإذن من يكون المخطئ؟

لكنهم يقولون: إن الرب هو الموصوف بجميع النقائص التي يوصف بها المخلوق. ويقولون: إن المخلوقات توصف بجميع الكمالات التي يوصف بها الخالق ويقولون ما قاله صاحب (الفصوص): "فالعلي لنفسه هو الذي يكون له الكمال الذي يستوعب به جميع النعوت الوجودية والنسب العدمية سواء كانت محمودة عرفا أو عقلا أو شرعا أو مذمومة عرفا وعقلا وشرعا وليس ذلك إلا لمسمى الله خاصة".

وهم مع هذا الكفر العظيم لا يندفع عنهم التناقض فإنه معلوم بالحس والعقل أن هذا ليس هو ذاك وهؤلاء يقولون ما كان يقوله التلمساني: إنه ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل. ويقولون: من أراد التحقيق – يعني تحقيقهم – فليترك العقل والشرع.

وقد قلت لمن خاطبته منهم: معلوم أن كشف الأنبياء أعظم وأتم من كشف غيرهم وخبرهم أصدق من خبر غيرهم؛ والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم يخبرون بما تعجز عقول الناس عن معرفته؛ لا بما يعرف الناس بعقولهم أنه ممتنع فيخبرون بمحارات العقول لا بمحالات العقول

فالأنبياء يخبرون بما تحار فيه العقول، وقد تعجز عن معرفته، لكن لا يخبرون بما يتنافى مع العقول.

ويمتنع أن يكون في إخبار الرسول ما يناقض صريح المعقول ويمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان: سواء كانا عقليين أو سمعيين أو كان أحدهما سمعيًا والآخر عقليًا فكيف بمن ادعى كشفا يناقض صريح الشرع والعقل؟

وهذا حق، يمتنع أن يتعارض دليلان قطعيان، وهذا مع كونه حقًا إلا أن أناسًا يخطئون في تنزيل هذا على الوقائع، وقد يزعم أن هذا الأمر قطعي لا يصح أن يُرد، مما سمعته قبل زمن أنه أحدهم زعم أن دوران الأرض على نفسها، وأن حصول الليل والنهار من دوران الأرض على نفسها هذا قطعي، فيجب أن تُفسّر به الأدلة. وهذا خطأ، فالزعم أنه قطعي خطأ، ولو كنا مجتمعين قبل مائة سنة فإن علماء الفلك ذاك الوقت مع انبهار الناس بهم كانوا يقولون: إن الشمس ثابتة، نحن الآن في السنة التاسعة والثلاثين بعد الأربعمائة والألف، لو قُدر أننا اجتمعنا في السنة التاسعة والثلاثين بعد الثلاثمائة والألف قبل مائة سنة، ورأينا علم الفلك كيف وصل هذا التقدم، ثم قالوا لنا: إن الشمس ثابتة، فإنه سيخرج بعضهم ويقول: إذن لا بد أن نؤول الأدلة الصريحة في أن الشمس تجري وتسير، فتأولوا قوله تعالى: {والشمس تجري}..إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية، وهذا خطأ.

أما علماء السنة كالإمام ابن باز –رحمه الله– فإنه لما أدرك طرفًا من ذلك قال: من قال إن الشمس ثابتة فهو كافر، لأنه خالف صريح القرآن والسنة، ثم رجع علمهم إلى هذا.

وهكذا الزعم بأن الأرض تدور وأنه بدورانها يحصل الليل والنهار، وقد خالف في هذا علماؤنا كالإمام ابن باز والإمام ابن عثيمين، –رحمهم الله– وذكروا أن

الليل والنهار لا يحصلان بدوران الأرض بل بالشمس كما هو ظاهر الأدلة، لذلك ترى الآيات والأدلة: غربت الشمس..إلخ، فإذن هي على ظاهرها تحصل بالشمس لا بدوران الأرض.

ومما يوضح ذلك ما ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة، قال: قال -صلى الله عليه وسلم-: «لما غزا نبي من الأنبياء ودنا من القوم وكانوا إذا غربت الشمس حرم عليهم القتال قال مخاطبًا للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها، فحبسها» لم تغرب الشمس وغزا، فالخطاب كان للشمس، لذا قال ابن باز وابن عثيمين: من قال إن الليل والنهار يكون بدوران الأرض فقد أخطأ ولم يقولوا إنه كافر، وقد ألّف في ذلك رسالة العلامة المجاهد حمود التويجري -رحمه الله-، وأيضًا الشيخ ابن دويش -رحمه الله- في رده على سيد قطب طرح هذه المسألة وذكر الأدلة عليها.

فالمقصود أن الأدلة ظاهرة في أن حصول الليل والنهار بالشمس لا بالأرض.

وسبب ذكر هذا أن بعضهم يقول إن هذا قطعي ولابد أن نتأول الأدلة، كما قالوها في الشمس قبلُ.

وقالوا: قد خرجوا إلى الأجواء وخرجوا بمركبات فلكية ورأوا ونظروا..إلخ، يقال: ينبغي أن يُتنبه إلى أمر، إذا اختلف في تحرك أمرين، لا بد أن يُنظر إلى أمر ثالث يُتفق على أنه ثابت، وأنت ترى نفسك في سيارتك قد يتحرك من هو جانبك وتظن نفسك المتحرك، حتى تنظر إلى شيء ثابت كشجرة أو غير ذلك، فما الجزء المتفق عليه بأنه ثابت لما ذهبوا إلى الفضاء بمركباتهم؟

وهؤلاء قد لا يتعمدون الكذب لكن يخيل لهم أشياء تكون في نفوسهم ويظنونها في الخارج وأشياء يرونها تكون موجودة في الخارج لكن يظنونها من كرامات الصالحين وتكون من تلبيسات الشياطين. وهؤلاء الذين يقولون بالوحدة ويقدمون الأولياء على الأنبياء ويذكرون أن النبوة لم تنقطع كما يُذكر عن ابن سبعين ونحوه، ويجعلون المراتب ثلاثة، يقولون: العبد يشهد أولا طاعة ومعصية ثم طاعة بلا معصية ثم لا طاعة ولا معصية والشهود الأول هو الشهود الصحيح وهو الفرق بين الطاعات والمعاصي وأما الشهود الثاني فيريدون به شهود القدر كما أن بعض هؤلاء يقول: أنا كافر برب يعصى وهذا يزعم أن المعصية مخالفة الإرادة التي هي المشيئة، والخلق كلهم داخلون تحت حكم المشيئة ويقول شاعرهم:

أصبحت منفعلا لما تختاره... مني ففعلي كله طاعات

المقصود: أنه نبه على أمر مهم، أن بعضهم يكون صادقًا وتتمثل له الشياطين فيظن ذلك ملكًا من الملائكة، فينبغي للإنسان أن لا يغتر بمثل هذا، فقد يبتلى، وذكر ابن تيمية أن بعض الصالحين ابتُلي بهذا وخُدع عافاني الله وإياكم.

وذكر عن نفسه في بعض المواضع أنه حصل له شيء من هذا، وقد خاطبه شجر، وقد يُفتن الإنسان بمثل هذا، فقد يعمل عملًا صالحًا ثم يستغل الشيطان عجبه وقبوله للعجب والغرور فيلبس عليه بمثل هذا، لذا ينبغي أن يكون الإنسان حذرًا وأن يتهم نفسه، مما ذُكر عن الشيخ العلامة المجاهد حمود التويجري –رحمه الله– أن أعرابيًا جاءه وطرق الباب عليه ثلاثة أيام، فلم يتيسر أو يتوافق أن يفتح الشيخ له الباب إلا في اليوم الثالث، فقال: والله يا شيخ رأيت رؤيا فيك أكثر من

مرة، تقول اذهب للشيخ حمود التويجري وبشره بأنه صالح أو بالجنة أو بشيء نحو هذا، فأغلق الشيخ الباب في وجهه وقال: أعوذ بالله لم يجد الشيطان أن يرسل لي إلا أنت؟.

أما نحن فلو ابتُلينا بأقل من هذا لأخذنا نتذكر الأعمال الصالحة التي فعلنا وماذا فعلنا، وفعلًا نستحق وهذا قليل في جانبنا..إلخ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أسأل الله أن يعيذنا وإياكم من الشيطان الرجيم.

ثم بعد ذلك ذكر الشهود وجعله أقسامًا ثلاثة عندهم:

القسم الأول: هو شهود فعل الطاعات وترك المحرمات، وهذا هو الشهود الشرعي ونحن مأمورون بفعل الطاعات وترك المحرمات.

القسم الثاني: شهود القدر، بحيث يزعمون أن العبد مجبور، فالعبد لا يُؤاخذ على مثل هذا، وهذا النوع من الشهود يقولون: العبد يرى الطاعة دون المعصية، وهذه هي مرتبة الجبر في القدر، وهم جبرية في هذا الباب، فكل معصية يفعلها العبد هو غير مؤاخذ لأنه مجبور على ذلك بخلاف الطاعة.

القسم الثالث: أن يشاهد الوجود واحدًا، والله هو الخلق والخلق هم الله، وهذا هو الكفر –عافاني الله وإياكم–، وهو القول بوحدة الوجود..إلخ.

ومعلوم أن هذا خلاف ما أرسل الله به رسله وأنزل به كتبه؛ فإن المعصية التي يستحق صاحبها الذم والعقاب مخالفة أمر الله ورسوله كما قال تعالى: {تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين

فيها وذلك الفوز العظيم} {ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين}

إذن من عصى الله مؤاخذ بمعصيته ولا يصح أن يقول بمنزلة الشهود في الدرجة الثانية: إنني لا أؤاخذ على فعل المعاصي لأني قد جبرت عليها، بخلاف فعل الطاعات.

وسنذكر الفرق بين الإرادة الكونية والإرادة الدينية والأمر الكوني والديني.

وخلاصتها أن أهل السنة يقرون بإرادتين، الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، كما جاء ذلك في الكتاب والسنة، والإرادة الكونية هي كل ما وقع، كل ما وقع فقد أراده الله كونًا سواء أحبه الله أو لم يحبه، والإرادة الشرعية: كل ما يحبه الله سواء وقع أو لم يقع.

وقد جاءت الأدلة بالإرادة الشرعية وبالإرادة الكونية، ومن الأدلة في الإرادة الشرعية: {يريد الله بكم اليسر}، ومن الأدلة في الإرادة الكونية: {فمن يُرد الله أن يُضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا} الآية.

إذن عندنا إرادتان وأهل السنة يؤمنون بالإرادتين، والإرادة الكونية ترادف المشيئة، وإذا أطلقت المشيئة فيراد بها الإرادة الكونية كما بين ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية كما في (مجموع الفتاوى) وأشار لذلك في التدمرية، وذكرها ابن القيم في (شفاء العليل).

والعلاقة بين الإرادتين عموم وخصوص وجهي، وهذا ما قرره شيخ الإسلام في كتابه (منهاج السنة) وكما في (مجموع الفتاوى)، وابن القيم في (شفاء العليل)، فقد يجتمعان وقد تنفرد كل واحدة، فكفر الكافر وقع، ولا يحبه الله، ولا يحب الله كفر أبي جهل وأبي لهب لكنه وقع، هذه إرادة كونية لا شرعية، وإرادة إيمان الكافر الذي لم يؤمن كأبي جهل وأبي لهب هذا لم يقع إذن ليس إرادة كونية لكن الله يحب ذلك فهي إرادة شرعية، وهنا انفردت الإرادة الشرعية.

وإيمان المؤمن كأبي بكر وعمر..إلخ، وقعت فهي إذن إرادة كونية، ويحبها الله فهي إذن إرادة شرعية.

وكانت هذه المسألة قد اشتبهت على طائفة من الصوفية فبينها الجنيد رحمه الله لهم، فمن اتبع الجنيد فيها كان على السداد ومن خالفه ضل لأنهم تكلموا في أن الأمور كلها بمشيئة الله وقدرته وفي شهود هذا التوحيد وهذا يسمونه الجمع الأول فبين لهم الجنيد أنه لا بد من شهود الفرق الثاني وهو أنه مع شهود كون الأشياء كلها مشتركة في مشيئة الله تعالى وقدرته وخلقه يجب الفرق بين ما يأمر به ويحبه ويرضاه وبين ما ينهى عنه ويكرهه ويسخطه ويفرق بين أوليائه وأعدائه كما قال الله تعالى: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين} {ما لكم كيف تحكمون} وقال تعالى: {أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار} وقال تعالى: {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون} وقال تعالى: {وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء قليلا ما تتذكرون}.

ولهذا كان مذهب سلف الأمة وأئمتها أن الله خالق كل شيء وربه ومليكه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن؛ لا رب غيره وهو مع ذلك أمر بالطاعة ونهى عن المعصية وهو لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ولا يأمر بالفحشاء وإن كانت واقعة بمشيئته فهو لا يحبها ولا يرضاها بل يبغضها ويذم أهلها ويعاقبهم.
والمرتبة الثالثة أن لا يشهد طاعة ولا معصية – فإنه يرى أن الوجود واحد وعندهم أن هذا غاية التحقيق والولاية لله؛ وهو في الحقيقة غاية الإلحاد في أسماء الله وآياته وغاية العداوة لله فإن صاحب هذا المشهد يتخذ اليهود والنصارى وسائر الكفار أولياء وقد قال تعالى: {ومن يتولهم منكم فإنه منهم}

لماذا يتخذهم أولياء؟ لأن الوجود واحد ولا فرق بين المؤمن والكافر.

ولا يتبرأ من الشرك والأوثان فيخرج عن ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، قال الله تعالى: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده} وقال الخليل عليه السلام لقومه المشركين: {أفرأيتم ما كنتم تعبدون} {أنتم وآباؤكم الأقدمون} {فإنهم عدو لي إلا رب العالمين} وقال تعالى: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه}.
وهؤلاء قد صنف بعضهم كتبا وقصائد على مذهبه مثل قصيدة ابن الفارض المسماة ب (نظم السلوك) يقول فيها:
لها صلاتي بالمقام أقيمها... وأشهد فيها أنها لي صلت

كلانا مصل واحد ساجد إلى... حقيقته بالجمع في كل سجدة
وما كان لي صلى سواي ولم تكن... صلاتي لغيري في أدا كل ركعة
إلى أن قال:
وما زلت إياها وإياي لم تزل... ولا فرق بل ذاتي لذاتي صلت
إلي رسولا كنت مني مرسلا... وذاتي بآياتي علي استدلت
فإن دعيت كنت المجيب وإن... أكن منادى أجابت من دعاني ولبت

وهناك اختلاف في النسخ، والأمر سهل.

إلى أمثال هذا الكلام؛ ولهذا كان هذا القائل عند الموت ينشد ويقول:
إن كان منزلتي في الحب عندكم... ما قد لقيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت نفسي بها زمنا... واليوم أحسبها أضغاث أحلام

فإنه كان يظن أنه هو الله فلما حضرت ملائكة الله لقبض روحه تبين له بطلان ما كان يظنه وقال الله تعالى: {سبح لله ما في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} فجميع ما في السماوات والأرض يسبح لله؛ ليس هو الله ثم قال تعالى: {له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير} {هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم}.
وفي صحيح مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول في دعائه: «اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء فالق الحب والنوى منزل التوراة والإنجيل والقرآن أعوذ بك من شر كل دابة أنت آخذ بناصيتها أنت الأول فليس قبلك شيء وأنت الآخر فليس بعدك شيء

وأنت الظاهر فليس فوقك شيء وأنت الباطن فليس دونك شيء اقض عني الدين واغنني من الفقر».

ثم قال: {هو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير}.

فذكر سبحانه أن السماوات والأرض – وفي مواضع أخر – (وما بينهما) مخلوق له مسبح له وأخبر سبحانه أنه يعلم كل شيء.

وأما قوله {وهو معكم أينما كنتم} فلفظ (مع) لا تقتضي في لغة العرب أن يكون أحد الشيئين مختلطا بالآخر كقوله تعالى {اتقوا الله وكونوا مع الصادقين} وقوله تعالى: {محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار} وقوله تعالى {والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم}.

قد يظن من لا يدري أن أدل المعية تؤيد قول هؤلاء، وهذا خطأ، لأن الخلاصة في المعية أن المعية تقتضي مطلق المصاحبة لغةً، وكلٌ معيته بحسب حاله.

"وضعت الماء مع اللبن"، المعية تقتضي الاختلاط والامتزاج، "سرت والقمرَ" الواو للمعية والقمر مفعول معه، والقمر في السماء وأنت في الأرض وكلامك صحيح، وهذا الذي يقتضي مطلق المصاحبة وكلٌ مصاحبته بحسبه، "سرت وصاحبي"، الواو للمعية، أي سرت مقاربًا له، وهكذا، فالمعية معناها مطلق المصاحبة، وكلٌ مصاحبته بحسبه، فإن كانت معية عامة فهي تقتضي العلم، -انتبه إلى قولي "تقتضي"- والمعية في نفسها مطلق المصاحبة، وتقتضي العلم، لكن تُفسّر بالعلم من باب التفسير باللازم.

وإن كانت معية خاصة فإنها تقتضي الحفظ التأييد..إلخ، فإذن أدلة المعية لا تدل على صحة قولهم، بل لو دققت فهي رد على من قال بوحدة الوجود، لأنه جعل أقلها اثنين، بحيث إن أحدهم مع الآخر.

ولفظ (مع) جاءت في القرآن عامة وخاصة ف (العامة) في هذه الآية وفي آية المجادلة {ألم تر أن الله يعلم ما في السماوات وما في الأرض ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم} إلى قوله: {إن الله بكل شيء عليم} فافتتح الكلام بالعلم وختمه بالعلم؛ ولهذا قال ابن عباس والضحاك وسفيان الثوري وأحمد بن حنبل: هو معهم بعلمه.

ومعروف أن السلف يفسرون الشيء بذكر لازمه، ولا يصح لأشعري أو معتزلي أن يستدل بهذا على أن له سلفًا ويقول نحن إذا أولنا أردنا بذلك اللازم، وذلك أن السلف يفسرون باللازم ولا يمتنعون من المعنى المطابق، أما الأشاعرة والمعتزلة فيفسرون باللازم ويجعلون التفسير بالمطابق خطأً بل يصرحون أنه كفر، كما يصرح بذلك جمع منهم، ويقولون ظاهر القرآن كفر.

وأما المعية الخاصة ففي قوله تعالى {إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون} وقوله تعالى لموسى: {إنني معكما أسمع وأرى} وقال تعالى: {إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا}، يعني النبي صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الصديق رضي الله عنه فهو مع موسى وهارون دون فرعون ومع محمد وصاحبه دون أبي جهل وغيره من أعدائه ومع الذين اتقوا والذين هم محسنون دون الظالمين المعتدين.

فلو كان معنى المعية أنه بذاته في كل مكان تناقض الخبر الخاص والخبر العام؛ بل المعنى أنه مع هؤلاء بنصره وتأييده دون أولئك. وقوله تعالى {وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله} أي هو إله من في السماوات وإله من في الأرض كما قال الله تعالى: {وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم} وكذلك وقوله تعالى {وهو الله في السماوات وفي الأرض} كما فسره ألوا العلم كالإمام أحمد وغيره: أنه المعبود في السماوات والأرض. وأجمع سلف الأمة وأئمتها أن الرب تعالى بائن من مخلوقاته يوصف بما وصف به نفسه وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل يوصف بصفات الكمال دون صفات النقص ويعلم أنه سبحانه ليس كمثله شيء ولا كقوله بشيء من صفات الكمال كما قال الله تعالى: {قل هو الله أحد} {الله الصمد} {لم يلد ولم يولد} {ولم يكن له كفوا أحد} قال ابن عباس رضي الله عنه: الصمد العليم الذي كمل في علمه العظيم الذي كمل في عظمته القدير الكامل في قدرته الحكيم الكامل في حكمته السيد الكامل في سؤدده.

والجامع له: الكامل في كل شيء، كما يدل عليه كلام شيخ الإسلام ابن تيمية في رسالته في تفسير سورة الإخلاص.

وقال ابن مسعود وغيره: هو الذي لا جوف له. والأحد الذي لا نظير له.

وكلام السلف كابن مسعود وغيره بقولهم: هو الذي لا جوف له، يدل على أنه يصح أن يُنفى عن الله الخرق، فيقول القائل: يسمع بلا خرق، والسمع ثبت بالأدلة، {وهو السميع البصير}، وبلا خرق يُؤخذ من نفي الجوف، ولا يقال: لا يقال بلا خرق ومثل هذا لا يُثبت ولا يُنفى، بل القول بأنه لا جوف له يقتضي نفي الخرق وهو من معاني {الصمد}، وقد أشار لهذا شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله–.

فاسمه الصمد يتضمن اتصافه بصفات الكمال ونفي النقائص عنه واسمه الأحد يتضمن اتصافه أنه لا مثل له. وقد بسطنا الكلام على ذلك في تفسير هذه السورة وفي كونها تعدل ثلث القرآن، والله أعلم.

فصل:

وكثير من الناس تشتبه عليهم الحقائق الأمرية الدينية الإيمانية بالحقائق الخلقية القدرية الكونية؛ فإن الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر كما قال تعالى: {إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين}، فهو سبحانه خالق كل شيء وربه ومليكه لا خالق غيره ولا رب سواه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن فكل ما في الوجود من حركة وسكون فبقضائه وقدره ومشيئته وقدرته وخلقه وهو سبحانه أمر بطاعته وطاعة رسله ونهى عن معصيته ومعصية رسله أمر بالتوحيد والإخلاص ونهى عن الإشراك بالله فأعظم الحسنات التوحيد وأعظم السيئات الشرك. قال

الله تعالى: {إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء} وقال تعالى: {ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله}. وفي الصحيحين عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك»، قلت: ثم أي؟ قال: «أن تزني بحليلة جارك». فأنزل الله تصديق ذلك {والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاما} {يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا} {إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما}.

وأمر سبحانه بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ونهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وأخبر أنه يحب المتقين ويحب المحسنين ويحب المقسطين؛ ويحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص وهو يكره ما نهى عنه كما قال في سورة سبحان: {كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها} وقد نهى عن الشرك وعقوق الوالدين؛ وأمر بإيتاء ذي القربى الحقوق ونهى عن التبذير؛ ونهى عن التقتير؛ وأن يجعل يده مغلولة إلى عنقه؛ وأن يبسطها كل البسط ونهى عن قتل النفس بغير الحق وعن الزنا وعن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن إلى أن قال: {كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها} وهو سبحانه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر.

يعني استطرد في بيان أن الأدلة جاءت في إثبات الإرادتين وأنه لا تعارض بينهما، وأن الواجب هو أن يُجمع بينهما بأن يؤمن العبد بهما.

والعبد مأمور أن يتوب إلى الله تعالى دائما، قال الله تعالى: {وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون}.

وفي صحيح البخاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة»، وفي صحيح مسلم عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة»، وفي السنن عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: كنا نعد لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد يقول: «رب اغفر لي وتب علي إنك أنت التواب الغفور مائة مرة» أو قال: «أكثر من مائة مرة».

وقد أمر الله سبحانه عباده أن يختموا الأعمال الصالحات بالاستغفار فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثا ويقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»، كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح عنه وقد قال تعالى: {والمستغفرين بالأسحار} فأمرهم أن يقوموا بالليل ويستغفروا بالأسحار.

وكذلك ختم سورة المزمل وهي سورة قيام الليل بقوله تعالى: {واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} وكذلك في الحج: {فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين} {ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا الله إن الله غفور رحيم} بل أنزل سبحانه وتعالى في آخر الأمر لما غزا النبي صلى الله عليه وسلم غزوة تبوك وهي آخر غزواته: {لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم إنه بهم رءوف رحيم} {وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت

وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم} وهي من آخر ما نزل من القرآن. وقد قيل: إن آخر سورة نزلت قوله تعالى {إذا جاء نصر الله والفتح} {ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا} {فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا} فأمره الله تعالى أن يختم عمله بالتسبيح والاستغفار وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم كان يقول في ركوعه وسجوده: «سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي» يتأول القرآن.

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني. اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت لا إله إلا أنت».

وفي الصحيحين أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به في صلاتي قال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

وفي السنن عن أبي بكر رضي الله عنه قال: يا رسول الله علمني دعاء أدعو به إذا أصبحت وإذا أمسيت فقال «قل: اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة رب كل شيء ومليكه أشهد أن لا إله إلا أنت أعوذ بك من شر نفسي ومن شر الشيطان وشركه وأن أقترف على نفسي سوءا أو أجره إلى مسلم. قله إذا أصبحت وإذا أمسيت وإذا أخذت مضجعك».

فليس لأحد أن يظن استغناءه عن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب؛ بل كل أحد محتاج إلى ذلك دائما. قال الله تبارك وتعالى: {وحملها الإنسان إنه كان

ظلوما جهولا} {ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات وكان الله غفورا رحيما}، فالإنسان ظالم جاهل وغاية المؤمنين والمؤمنات التوبة وقد أخبر الله تعالى في كتابه بتوبة عباده الصالحين ومغفرته لهم.

وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لن يدخل أحد الجنة أحد بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»، وهذا لا ينافي قوله {كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم في الأيام الخالية} فإن الرسول صلى الله عليه وسلم نفى باء المقابلة والمعادلة والقرآن أثبت باء السبب. وقول من قال: «إذا أحب الله عبدا لم تضره الذنوب». معناه أنه إذا أحب عبدا ألهمه التوبة والاستغفار فلم يصر على الذنوب ومن ظن أن الذنوب لا تضر من أصر عليها فهو ضال مخالف للكتاب والسنة وإجماع السلف والأئمة؛ بل من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

وإنما عباده الممدوحون هم المذكورون في قوله تعالى: {وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين} {الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين} {والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون}.

ومن ظن أن القدر حجة لأهل الذنوب فهو من جنس المشركين الذين قال الله تعالى عنهم: {سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء} قال الله تعالى رادا عليهم: {كذلك كذب الذين من قبلهم حتى

ذاقوا بأسنا قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون} {قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين}.

هذا كله رد على الجبرية، ومن الجبرية الجهمية والأشاعرة، والجبرية يُثبتون إرادة واحدة وهي الإرادة الكونية.

ولو كان القدر حجة لأحد لم يعذب الله المكذبين للرسل كقوم نوح وعاد وثمود والمؤتفكات وقوم فرعون ولم يأمر بإقامة الحدود على المعتدين ولا يحتج أحد بالقدر إلا إذا كان متبعا لهواه بغير هدى من الله ومن رأى القدر حجة لأهل الذنوب يرفع عنهم الذم والعقاب فعليه ألا يذم أحدا ولا يعاقبه إذا اعتدى عليه؛ بل يستوي عنده ما يوجب اللذة وما يوجب الألم فلا يفرق بين من يفعل معه خيرا وبين من يفعل معه شرا وهذا ممتنع طبعا وعقلا وشرعا. وقد قال الله تعالى: {أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار}؟ وقال تعالى: {أفنجعل المسلمين كالمجرمين}؟ وقال تعالى: {أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون} وقال تعالى: {أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون}

أورد شيخ الإسلام هذا الكلام الطويل للرد على المرتبة الثانية من الشهود الذين اعتقدوا الجبر، وأن العبد لا يؤاخذ على فعل المعصية.

وقد قال تعالى: {أيحسب الإنسان أن يترك سدى} أي مهملا لا يؤمر ولا ينهى.

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «احتج آدم وموسى قال موسى: يا آدم أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأسجد لك ملائكته لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله بكلامه وكتب لك التوراة بيده فبكم وجدت مكتوبا علي قبل أن أخلق {وعصى آدم ربه فغوى}؟ قال: بأربعين سنة، قال: فلم تلومني على أمر قدره الله علي قبل أن أخلق بأربعين سنة؟ قال: فحج آدم موسى» أي: غلبه بالحجة.

وهذا الحديث ضلت فيه طائفتان: طائفة كذبت به لما ظنوا أنه يقتضي رفع الذم والعقاب عمن عصى الله عز وجل لأجل القدر،

هؤلاء هم القدرية ومنهم المعتزلة.

وطائفة شر من هؤلاء يجعلونه حجة وقد يقولون: القدر حجة لأهل الحقيقة الذين شهدوه أو الذين لا يرون أن لهم فعلا.

أصحاب المرتبة الثانية من الشهود الذي تقدم ذكره هم الجبرية كالجهمية وهم غلاتهم، ومن الجبرية الأشاعرة.

ومن الناس من قال: إنما حجه لأنه أبوه أو لأنه كان قد تاب أو لأن الذنب كان في شريعة واللوم في أخرى أو لأن هذا يكون في الدنيا دون الآخرة، وكل

هذا باطل. ولكن وجه الحديث أن موسى عليه السلام لم يلم أباه إلا لأجل المصيبة التي لحقتهم من أجل أكله من الشجرة فقال له: لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟

إذن يجوز أن يُحتج بالقدر على المصائب ولا يُحتج به على المعائب، فلو أن إنسانًا عصى الله وقال: قدره الله علي، هذا لا يجوز، لكن أصيب بحادث مروري وتعطل أو أصيب بمرض، هنا يقول: قدره الله علي.

فموسى –عليه السلام– لا يلوم آدم –عليه السلام– على فعل المعصية وإنما يلومه على المصيبة التي ترتبت على المعصية وهي الإخراج من الجنة، وذلك أن آدم – عليه السلام– تاب، ومن تاب من الذنب كمن لا ذنب له.

لم يلمه لمجرد كونه أذنب ذنبا وتاب منه؛ فإن موسى عليه السلام يعلم أن التائب من الذنب لا يلام وهو قد تاب منه أيضا ولو كان آدم عليه السلام يعتقد رفع الملام عنه لأجل القدر لم يقل: {ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين}. والمؤمن مأمور عند المصائب أن يصبر ويسلم وعند الذنوب أن يستغفر ويتوب قال الله تعالى: {فاصبر إن وعد الله حق واستغفر لذنبك} فأمره بالصبر على المصائب والاستغفار من المعائب.

وقد قال تعالى: {ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه} قال ابن مسعود: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم فالمؤمنون إذا أصابتهم مصيبة مثل المرض والفقر والذل صبروا لحكم الله وإن كان ذلك بسبب ذنب غيرهم كمن أنفق أبوه ماله في المعاصي فافتقر

أولاده لذلك فعليهم أن يصبروا لما أصابهم وإذا لاموا الأب لحظوظهم ذكر لهم القدر.

و الصبر واجب باتفاق العلماء وأعلى من ذلك الرضا بحكم الله و الرضا قد قيل: إنه واجب وقيل: هو مستحب وهو الصحيح وأعلى من ذلك أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها حيث جعلها سببا لتكفير خطاياه ورفع درجاته وإنابته إلى الله وتضرعه إليه وإخلاصه له في التوكل عليه ورجائه دون المخلوقين، وأما أهل البغي والضلال فتجدهم يحتجون بالقدر إذا أذنبوا واتبعوا أهواءهم ويضيفون الحسنات إلى أنفسهم إذا أنعم عليهم بها كما قال بعض العلماء أنت عند الطاعة قدري وعند المعصية جبري؛ أي مذهب وافق هواك تمذهبت به.

وأهل الهدى والرشاد إذا فعلوا حسنة شهدوا إنعام الله عليهم بها وأنه هو الذي أنعم عليهم وجعلهم مسلمين وجعلهم يقيمون الصلاة وألهمهم التقوى وأنه لا حول ولا قوة إلا به فزال عنهم بشهود القدر العجب والمن والأذى وإذا فعلوا سيئة استغفروا الله وتابوا إليه منها؛ ففي صحيح البخاري عن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت من قالها إذا أصبح موقنا بها فمات من ليلته دخل الجنة».

وفي الحديث الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا

أغفر الذنوب جميعا ولا أبالي فاستغفروني أغفر لكم. يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكم. يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم. يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري؛ فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئا. يا عبادي؛ لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم اجتمعوا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخيط غمسة واحدة. يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه».

فأمر سبحانه بحمده على ما يجده الإنسان من خير وأنه إذا وجد شرا فلا يلومن إلا نفسه. وكثير من الناس يتكلم بلسان الحقيقة ولا يفرق بين الحقيقة الكونية القدرية المتعلقة بخلقه ومشيئته وبين الحقيقة الدينية الأمرية المتعلقة برضاه ومحبته ولا يفرق بين من يقوم بالحقيقة الدينية موافقا لما أمر الله به على ألسن رسله وبين من يقوم بوجده وذوقه غير معتبر لذلك بالكتاب والسنة كما أن لفظ (الشريعة) يتكلم به كثير من الناس ولا يفرق بين الشرع المنزل من عند الله تعالى وهو الكتاب والسنة الذي بعث الله به رسوله؛

عندنا شرع منزل، وشرع مبدل، وشرع مؤول، والمنزل هو شرع الله، والمبدل والمؤول: كلاهما غُيرا، لكن المؤول غُير بدافع التأويل، فصاحبه معذور، والمبدِل

غير بدافع الكذب على دين الله، والذي يجب اتباعه هو الشرع المنزل، ومن اتبع العالم في اجتهاده إذا أخطأ هذا يسمى شرعًا مؤولًا، هذا مستفاد من كلام ابن تيمية كما في مجموع الفتاوى.

فإن هذا الشرع ليس لأحد من الخلق خروج عنه ولا يخرج عنه إلا كافر وبين الشرع الذي هو حكم الحاكم فالحاكم تارة يصيب وتارة يخطئ. هذا إذا كان عالما عادلا وإلا ففي السنن عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «القضاة ثلاثة قاضيان في النار وقاض في الجنة: رجل علم الحق وقضى به فهو في الجنة ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار ورجل علم الحق فقضى بغيره فهو في النار»، وأفضل القضاة العالمين العادلين سيد ولد آدم محمد صلى الله عليه وسلم فقد ثبت عنه في الصحيحين أنه قال: «إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم يكون ألحن بحجته من بعض وإنما أقضي بنحو مما أسمع فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه فإنما أقطع له قطعة من النار»، فقد أخبر سيد الخلق أنه إذا قضى بشيء مما سمعه وكان في الباطن بخلاف ذلك لم يجز للمقضي له أن يأخذ ما قضى به له وأنه إنما يقطع له به قطعة من النار. وهذا متفق عليه بين العلماء في الأملاك المطلقة إذا حكم الحاكم بما ظنه حجة شرعية كالبينة والإقرار وكان الباطن بخلاف الظاهر لم يجز للمقضي له أن يأخذ ما قضي به له باتفاق العلماء. وإن حكم في العقود والفروج بمثل ذلك؛ فأكثر العلماء يقول إن الأمر كذلك وهو مذهب مالك والشافعي وأحمد بن حنبل وفرق أبو حنيفة رضي الله عنه بين النوعين. فلفظ (الشرع والشريعة) إذا أريد به الكتاب والسنة لم يكن لأحد لا من أولياء الله ولا لغيرهم أن يخرج عنه ومن ظن أن لأحد من أولياء الله طريقا إلى الله غير متابعة محمد صلى الله عليه وسلم باطنا وظاهرا فهو كافر.

ومن احتج في ذلك بقصة موسى مع الخضر كان غالطا من وجهين: أحدهما: أن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثا إلى الخضر ولا كان على الخضر اتباعه؛

من يرى إسقاط التكاليف ويرى عدم وجوب متابعة النبي -صلى الله عليه وسلم- يستند إلى قصة الخضر مع موسى -عليه السلام-، وأنه يصح للرجل أن يخالف النبي -صلى الله عليه وسلم-إذا بلغ منزلة عالية، وأجاب شيخ الإسلام بجوابين:

- الجواب الأول: أن موسى لم يكن يُرسل إلى الناس عامة، بخلاف نبينا محمد -صلى الله عليه وسلم- لذلك الخضر ليس مأمورًا باتباع شريعة موسى.
- الجواب الثاني: أن الخضر -عليه السلام- ترك شيئًا من الشريعة لمصلحة راجحة لأنه اطلع على أمور لم يطلع عليها موسى، وإلا هو لم يخالف موسى في أصل التشريع وأن قتل النفس بغير حق لا يجوز..إلخ، فإذن الخلاف بينهم ليس في أصل التشريع وإنما لأن الخضر اطلع على شيء لم يطلع عليه موسى.

فإن موسى عليه السلام كان مبعوثا إلى بني إسرائيل وأما محمد صلى الله عليه وسلم فرسالته عامة لجميع الثقلين الجن والإنس ولو أدركه من هو أفضل من الخضر: كإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وجب عليهم؛ اتباعه فكيف بالخضر سواء كان نبيا أو وليا؛ ولهذا قال الخضر لموسى: "إني على علم من علم الله علمنيه الله لا تعلمه؛ وأنت على علم من علم الله علمكه الله لا أعلمه "، وليس لأحد من الثقلين الذين بلغتهم رسالة محمد صلى الله عليه وسلم أن يقول مثل هذا.

الثاني: أن ما فعله الخضر لم يكن مخالفا لشريعة موسى عليه السلام، بل كان موافقًا لها، لكن موسى عليه السلام لم يكن علم الأسباب التي تبيح ذلك فلما بينها له وافقه على ذلك فإن خرق السفينة ورقعها لمصلحة أهلها خوفا من الظالم أن يأخذها إحسان إليهم وذلك جائز وقتل الصبي جائز وإن كان صغيرا ومن كان تكفيره لأبويه لا يندفع إلا بقتله جاز قتله.

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما لنجدة الحروري لما سأله عن قتل الغلمان: إن كنت علمت منهم ما علمه الخضر من ذلك الغلام فاقتلهم وإلا فلا تقتلهم رواه البخاري.

وأما الإحسان إلى اليتيم بلا عوض والصبر على الجوع فهذا من صالح الأعمال فلم يكن في ذلك شيء يخالف شرع الله تعالى.

وأما إذا أريد بالشرع حكم الحاكم فقد يكون ظالما وقد يكون عدلًا وقد يكون صوابا وقد يكون خطأ وقد يراد بالشرع أقوال أئمة الفقه: كأبي حنيفة والثوري ومالك بن أنس والأوزاعي والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق وداود وغيرهم فهؤلاء أقوالهم يحتج لها بالكتاب والسنة وإذا قلد المقلد لأحدهم حيث يسوغ ذلك كان جائزا، وليس اتباع أحدهم واجبا على جميع الأمة كاتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يحرم تقليد أحدهم كما يحرم اتباع من يتكلم بغير علم.

وأما إن أضاف أحد إلى الشريعة ما ليس منها من أحاديث مفتراة أو تأول النصوص بخلاف مراد الله منها ونحو ذلك؛ فهذا من نوع التبديل فيجب الفرق بين الشرع المنزل والشرع المؤول والشرع المبدل كما يفرق بين الحقيقة الكونية والحقيقة الدينية الأمرية وبين ما يستدل عليها بالكتاب والسنة وبين ما يكتفى فيها بذوق صاحبها ووجده.

فصل:

وقد بيّن الله في كتابه الفرق بين (الإرادة) و (الأمر) و (القضاء) و (الإذن) و (التحريم) و (البعث) و (الإرسال) و (الكلام) و (الجعل): بين الكوني الذي خلقه وقدره وقضاه؛

الإرادة كما تقدم نوعان: إرادة شرعية وإرادة كونية، وهذا ليس خاصًا بلفظ الإرادة، كذلك التحريم يكون شرعيًا وكونيًا، وكذلك الإذن يكون شرعيًا وكونيًا، وكذلك الحكم يكون شرعيًا وكونيًا، وكذلك القضاء يكون شرعيًا وكونيًا، ذكر هذا ابن تيمية كما في المجلد السابع من (مجموع الفتاوى)، وذكره ابن القيم في كتابه (شفاء العليل).

فتأتي كونية وتأتي شرعية، «إن الله لم يجعل شفاء أمتي فيما حرم عليها»، وأيضًا الجُعل يكون شرعيًا وكونيًا، وقد يُعالج الإنسان بالشيء المحرم فيُشفى، فيُراد بالجُعل هنا الجعل الشرعي لا الكوني.

وإن كان لم يأمر به ولا يحبه ولا يرضاه، ولا يثيب أصحابه ولا يجعلهم من أوليائه المتقين وبين الديني الذي أمر به وشرعه وأحبه ورضيه وأحب فاعليه، وأثابهم وأكرمهم وجعلهم من أوليائه المتقين وحزبه المفلحين وجنده الغالبين؛ وهذا من أعظم الفروق التي يفرق بها بين أولياء الله وأعدائه فمن استعمله الرب سبحانه وتعالى فيما يحبه ويرضاه ومات على ذلك كان من أوليائه ومن كان عمله فيما يبغضه الرب ويكرهه ومات على ذلك كان من أعدائه. فـ (الإرادة الكونية) هي مشيئته لما خلقه وجميع المخلوقات داخلة في مشيئته، والإرادة الدينية هي

المتضمنة لمحبته ورضاه المتناولة لما أمر به وجعله شرعا وديناً. وهذه مختصة بالإيمان والعمل الصالح قال الله تعالى في الأولى: {فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء}

وهذه الآية رأيت العلماء كشيخ الإسلام وابن القيم في مواضع يُوردونها دليلًا ومثالًا على الإرادة الكونية لا الشرعية، وكذلك شيخنا ابن عثيمين فعل هذا – رحمه الله–.

وقال نوح عليه السلام لقومه: {ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم إن كان الله يريد أن يغويكم} وقال تعالى: {وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال}.
وقال في الثانية: {ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} وقال في آية الطهارة: {ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون} ولما ذكر ما أحله وما حرمه من النكاح قال: {يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم} {والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيما} {يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفا} وقال لما ذكر ما أمر به أزواج النبي صلى الله عليه وسلم وما نهاهن عنه: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا} والمعنى: أنه أمركم بما يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم فمن أطاع أمره كان مطهرا قد أذهب عنه الرجس بخلاف من عصاه. وأما (الأمر) فقال في

الأمر الكوني: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون} وقال تعالى: {وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر} وقال تعالى: {أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس}.

وأما الديني: فقال تعالى: {إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون} وقال تعالى: {إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا}

وأما (الإذن) فقال في الكوني لما ذكر السحر: {وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله} أي بمشيئته وقدرته؛ وإلا فالسحر لم يبحه الله عز وجل. وقال في (الإذن الديني): {أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله} وقال تعالى: {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا} {وداعيا إلى الله بإذنه} وقال تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله} وقال تعالى: {ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله}. وأما (القضاء) فقال في الكوني: {فقضاهن سبع سماوات في يومين} وقال سبحانه: {إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون} وقال في الديني: {وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه} أي أمر وليس المراد به قدر ذلك فإنه قد عبد غيره كما أخبر في غير موضع كقوله تعالى: {ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله} وقول الخليل عليه السلام لقومه: {أفرأيتم ما كنتم تعبدون} {أنتم وآباؤكم الأقدمون} {فإنهم عدو لي إلا رب العالمين} وقال تعالى: {قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء}

وقال تعالى: {قل يا أيها الكافرون} {لا أعبد ما تعبدون} {ولا أنتم عابدون ما أعبد} {ولا أنا عابد ما عبدتم} {ولا أنتم عابدون ما أعبد} {لكم دينكم ولي دين} وهذه كلمة تقتضي براءته من دينهم ولا تقتضي رضاه بذلك؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: {وإن كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون}.

ومن ظن من الملاحدة أن هذا رضا منه بدين الكفار فهو من أكذب الناس وأكفرهم كمن ظن أن قوله تعالى: {وقضى ربك} بمعنى قدر وأن الله سبحانه ما قضى بشيء إلا وقع وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلا الله؛ فإن هذا من أعظم الناس كفرا بالكتب كلها. وأما لفظ (البعث) فقال تعالى في البعث الكوني: {فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعدا مفعولا} وقال في البعث الديني: {هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة} قال تعالى: {ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت}. وأما لفظ (الإرسال) فقال في الإرسال الكوني: {ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا} وقال تعالى: {وهو الذي أرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته} وقال في الديني {إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا} وقال تعالى: {إنا أرسلنا نوحا إلى قومه} وقال تعالى: {إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهدا عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولا} وقال تعالى: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس}. وأما لفظ (الجعل) فقال في الكوني: {وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار} وقال في الديني: {لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا} وقال تعالى: {ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام}. وأما لفظ (التحريم) فقال في الكوني: {وحرمنا عليه المراضع من قبل} وقال تعالى: {فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في

الأرض} وقال في الديني {حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به} وقال تعالى: {حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت} الآية. وأما لفظ (الكلمات) فقال في الكلمات الكونية: {وصدقت بكلمات ربها وكتبه}.

وثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: «أعوذ بكلمات الله التامة كلها من شر غضبه وعقابه وشر عباده ومن همزات الشياطين وأن يحضرون»، وقال صلى الله عليه وسلم: «من نزل منزلا فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك» وكان يقول: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من شر ما ذرأ في الأرض ومن شر ما يخرج منها ومن شر فتن الليل والنهار ومن شر كل طارق إلا طارقا يطرق بخير يا رحمن».

وكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر هي التي كون بها الكائنات فلا يخرج بر ولا فاجر عن تكوينه ومشيئته وقدرته.

ظاهر صنيع شيخ الإسلام أن قوله –صلى الله عليه وسلم– : «أعوذ بكلمات الله التامات»، أن المراد بها الكلمات الكونية لا الشرعية، بخلاف بعض مشايخنا جعلها شاملة للكونية والشرعية، وهذا فيه نظر –والله أعلم–، ومقتضى السياق يدل على أنها الكونية لا الشرعية.

وأما (كلماته الدينية) وهي كتبه المنزلة وما فيها من أمره ونهيه فأطاعها الأبرار وعصاها الفجار. وأولياء الله المتقون هم المطيعون لكلماته الدينية وجعله الديني

وإذنه الديني وإرادته الدينية. وأما كلماته الكونية التي لا يجاوزها بر ولا فاجر؛ فإنه يدخل تحتها جميع الخلق

هذه هي الكلمات التي استعاذ بها والتي لا يجاوزها بر ولا فاجر.

حتى إبليس وجنوده وجميع الكفار وسائر من يدخل النار فالخلق وإن اجتمعوا في شمول الخلق والمشيئة والقدرة والقدر لهم فقد افترقوا في الأمر والنهي والمحبة والرضا والغضب.

وأولياؤه المتقون هم الذين فعلوا المأمور وتركوا المحظور وصبروا على المقدور فأحبهم وأحبوه ورضي عنهم ورضوا عنه.

وأعداؤه أولياء الشياطين وإن كانوا تحت قدرته فهو يبغضهم ويمقتهم ويغضب عليهم ويلعنهم ويعاديهم.

وبسط هذه الجمل له موضع آخر وإنما كتبت هنا تنبيها على مجامع (الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان)، وجمع الفرق بينهما اعتبارهم بموافقة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه هو الذي فرق الله به بين أوليائه السعداء وأعدائه الأشقياء وبين أوليائه أهل الجنة وأعدائه أهل النار وبين أوليائه أهل الهدى والرشاد وبين أعدائه أهل الغي والضلال والفساد وأعدائه حزب الشيطان وأوليائه الذين كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه. قال تعالى: {لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله} الآية وقال تعالى: {إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان}.

وقال في أعدائه: {وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم} وقال: {وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا} وقال: {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين} {تنزل على كل أفاك أثيم} {يلقون السمع وأكثرهم كاذبون} {والشعراء يتبعهم الغاوون} {ألم تر أنهم في كل واد يهيمون} {وأنهم يقولون ما لا يفعلون} {إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا من بعد ما ظلموا وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون} وقال تعالى: {فلا أقسم بما تبصرون} {وما لا تبصرون} {إنه لقول رسول كريم} {وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون} {ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون} {تنزيل من رب العالمين} {ولو تقول علينا بعض الأقاويل} {لأخذنا منه باليمين} {ثم لقطعنا منه الوتين} {فما منكم من أحد عنه حاجزين} {وإنه لتذكرة للمتقين} {وإنا لنعلم أن منكم مكذبين} {وإنه لحسرة على الكافرين} {وإنه لحق اليقين} {فسبح باسم ربك العظيم} وقال تعالى: {فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون} إلى قوله: {إن كانوا صادقين}.

فنزه سبحانه وتعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم عمن تقترن به الشياطين من الكهان والشعراء والمجانين؛ وبين أن الذي جاءه بالقرآن ملك كريم اصطفاه الله تعالى، قال الله تعالى: {الله يصطفي من الملائكة رسلا ومن الناس} وقال تعالى: {وإنه لتنزيل رب العالمين} {نزل به الروح الأمين} {على قلبك لتكون من المنذرين} {بلسان عربي مبين} وقال تعالى: {قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله} الآية. وقال تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم} إلى قوله {وبشرى للمسلمين} فسماه الروح الأمين وسماه روح القدس. وقال تعالى: {فلا أقسم بالخنس} {الجواري الكنس} يعني:

الكواكب التي تكون في السماء خانسة أي: مختفية قبل طلوعها فإذا ظهرت رآها الناس جارية في السماء فإذا غربت ذهبت إلى كناسها الذي يحجبها {والليل إذا عسعس} أي إذا أدبر وأقبل الصبح {والصبح إذا تنفس} أي أقبل {إنه لقول رسول كريم} وهو جبريل عليه السلام {ذي قوة عند ذي العرش مكين} {مطاع ثم أمين} أي مطاع في السماء ثم أمين، قال: {وما صاحبكم بمجنون} أي صاحبكم الذي من الله عليكم به إذ بعثه إليكم رسولا من جنسكم يصحبكم إذ كنتم لا تطيقون أن تروا الملائكة كما قال تعالى: {وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون} {ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا} الآية.

وقال تعالى: {ولقد رآه بالأفق المبين} أي رأى جبريل عليه السلام {وما هو على الغيب بضنين} أي بمتهم وفي القراءة الأخرى: {بضنين} أي ببخيل يكتم العلم ولا يبذله إلا بجعل كما يفعل من يكتم العلم إلا بالعوض. {وما هو بقول شيطان رجيم} فنزه جبريل عليه السلام عن أن يكون شيطانا كما نزه محمدا صلى الله عليه وسلم عن أن يكون شاعرا أو كاهنا.

فأولياء الله المتقون هم المقتدون بمحمد صلى الله عليه وسلم فيفعلون ما أمر به وينتهون عما عنه زجر؛ ويقتدون به فيما بين لهم أن يتبعوه فيه فيؤيدهم بملائكته وروح منه ويقذف الله في قلوبهم من أنواره ولهم الكرامات التي يكرم الله بها أولياءه المتقين. وخيار أولياء الله كراماتهم محجة في الدين أو لحاجة بالمسلمين كما كانت معجزات نبيهم صلى الله عليه وسلم كذلك.

وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباع رسوله صلى الله عليه وسلم

وكما قال: "وخيار أولياء الله كراماتهم لحجة في الدين أو لحاجة المسلمين" كما كان يحصل للنبي -صلى الله عليه وسلم-.

ثم ذكر وقال: "وكرامات أولياء الله إنما حصلت ببركة اتباعهم للنبي -صلى الله عليه وسلم-، إذن مبعث الكرامة الطاعة والاتباع بخلاف خوارق العادات التي عند السحرة، إذن مما يُفرق بين كرامات الأولياء وخوارق العادات التي على أيدي السحرة هو النظر إلى مبعثها والمراد منها، وقد ذكر هذا، لما قال: "كراماتهم لحجة في الدين" هذا المراد منها، والمراد من الكرامات إظهار الدين..إلى غير ذلك، بخلاف خوارق العادات التي تكون على أيدي السحرة، والأمر الثاني إلى مبعثها، أي مبعث الكرامات وسببها الاتباع، بخلاف خوارق العادات التي عند السحرة والكهنة فإن سببها اتباع الشياطين.

فهي في الحقيقة تدخل في معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم مثل انشقاق القمر وتسبيح الحصا في كفه وإتيان الشجر إليه وحنين الجذع إليه وإخباره ليلة المعراج بصفة بيت المقدس وإخباره بما كان وما يكون وإتيانه بالكتاب العزيز وتكثير الطعام والشراب مرات كثيرة

وتأملوا كل هذه الكرامات لم تكن على وجه الإعجاز والتحدي إلا القرآن.

كما أشبع في الخندق العسكر من قدر طعام وهو لم ينقص، وروّى العسكر في غزوة خيبر من مزادة ماء ولم تنقص، وحديث أم سليم المشهور في مثل ذلك، ولما هموا بنحر الظهور فجمع الأزواج ودعا الله تعالى فما بقي في القوم إلا من

ملأ وعاءه، وملأ أوعية العسكر عام تبوك من طعام قليل ولم ينقص وهم نحو ثلاثين ألفا، ونبع الماء من بين أصابعه مرات متعددة حتى كفى الناس الذين كانوا معه كما كانوا في غزوة الحديبية نحو ألف وأربعمائة أو خمسمائة ورده لعين أبي قتادة حين سالت على خده فرجعت أحسن عينين، ولما أرسل محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف فوقع وانكسرت رجله فمسحها بيده الكريمة فبرئت، وأطعم من شواء بطن مائة وثلاثين رجلا كلا منهم حز له قطعة وجعل منها قطعتين

الصواب: "وجعل منها قصعتين".

فأكلوا منها جميعهم ثم فضل فضلة، وقضى دين عبد الله أبي جابر لليهودي وهو ثلاثون وسقا. قال جابر: فأمر صاحب الدين أن يأخذ التمر جميعه بالذي كان له فأبى، فجد وجعل يبادر يقبل فمشى فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال لجابر: «جد له»، فوفاه الثلاثين وسقا وفضل سبعة عشر وسقا ومثل هذا كثير قد جمعت نحو ألف معجزة.

وأؤكد على أمر، وهو أن المعجزة تطلق فيما يجري على يد النبي من الآيات وعلى يد الولي، والمشهور والكثير أن يُطلق على ما يجري على يد النبي بأنه "آية"، وما يجري على يد الصالحين يسمى "كرامة"، وقد يُسمى العكس، قد يقال فيما يجري على يد النبي: "معجزة" ويقال فيما يجري على يد الولي: "معجزة"، أما المتكلمون وأحيانًا يعبر عنهم ابن تيمية بالـ"النظار"، لا يجعلون ما يجري على يد النبي معجزة لأن

عندهم أنها مقرونة بالتحدي مع ادعاء النبوة وهذه إنما تكون للنبي، فعندهم أن آيات الأنبياء لا بد أن تكون مع ادعاء النبوة مع الإعجاز والتحدي، لذا لا يجعلونها في حق الأولياء.

واستعمال أئمة السنة كما ينقل ابن تيمية عن أحمد وغيره أنهم يستعملون المعجزة في الاثنين، وإن كان الأكثر في استعمالاتهم أنهم يعبرون بلفظ "الآيات" في حق الأنبياء و "الكرامات" في حق الأولياء والصالحين.

وكرامات الصحابة والتابعين بعدهم وسائر الصالحين كثيرة جدا: مثل ما كان أسيد بن حضير يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة تتنزّل تستمع لقراءته، وكانت الملائكة تسلم على عمران بن حصين؛ وكان سلمان الفارسي وأبو الدرداء يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة و سبح ما فيها، وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما. رواه البخاري وغيره.

وقصة الصديق في الصحيحين لما ذهب بثلاثة أضياف معه إلى بيته وجعل لا يأكل لقمة إلا رأى من أسفلها أكثر منها فشبعوا وصارت أكثر مما هي قبل ذلك فنظر إليها أبو بكر وامرأته فإذا هي أكثر مما كانت فرفعها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء إليه أقوام كثيرون فأكلوا منها.

وخبيب بن عدي كان أسيرا عند المشركين بمكة شرفها الله تعالى وكان يؤتى بعنب يأكله وليس بمكة عنبة.

وأكثر ما تقدم من الكرامات راجع إلى القوة والتأثير.

وعامر بن فهيرة قتل شهيدا فالتمسوا جسده فلم يقدروا عليه وكان لما قتل رفع فرآه عامر بن الطفيل وقد رفع وقال: عروة: فيرون أن الملائكة رفعته.

وخرجت أم أيمن مهاجرة وليس معها زاد ولا ماء فكادت تموت من العطش فلما كان وقت الفطر وكانت صائمة سمعت حسا على رأسها فرفعته فإذا دلو برشاء أبيض معلق فشربت منه حتى رويت وما عطشت بقية عمرها.

وسفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر الأسد أنه مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى معه الأسد حتى أوصله مقصده.

والبراء بن مالك كان إذا أقسم على الله تعالى أبر قسمه وكان الحرب إذا اشتد على المسلمين في الجهاد يقولون: يا براء أقسم على ربك فيقول: يا رب أقسمت عليك لما منحتنا أكتافهم فينهزم العدو فلما كان يوم القادسية قال: أقسمت عليك يا رب لما منحتنا أكتافهم وجعلتني أول شهيد فمنحوا أكتافهم وقتل البراء شهيدا.

وخالد بن الوليد حاصر حصنا منيعا فقالوا لا نسلم حتى تشرب السم فشربه فلم يضره.

وسعد بن أبي وقاص كان مستجاب الدعوة ما دعا قط إلا استجيب له وهو الذي هزم جنود كسرى وفتح العراق.

وعمر بن الخطاب لما أرسل جيشا أمر عليهم رجلا يسمى سارية فبينما عمر يخطب فجعل يصيح على المنبر يا سارية الجبل يا سارية الجبل الجبل!، فقدم رسول الجيش فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين لقينا عدوا فهزمونا فإذا بصائح: يا سارية الجبل يا سارية الجبل فأسندنا ظهورنا بالجبل فهزمهم الله.

ولما عذبت الزبيرة على الإسلام في الله فأبت إلا الإسلام وذهب بصرها قال المشركون أصاب بصرها إلا اللات والعزى قالت كلا والله فرد الله عليها بصرها.

ودعا سعيد بن زيد على أروى بنت الحكم فأعمي بصرها لما كذبت عليه فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها واقتلها في أرضها فعميت ووقعت في حفرة من أرضها فماتت.

وكان العلاء بن الحضرمي كان عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم على البحرين وكان يقول في دعائه: يا عليم يا حليم يا علي يا عظيم فيستجاب له ودعا الله تعالى بأن يسقوا ويتوضئوا لما عدموا الماء ولا يبقى لما بعدهم، فتوضأ فدعا فأجيب، ودعا الله تعالى لما اعترضهم البحر ولم يقدروا على المرور بخيولهم فمروا كلهم هو والعسكر بخيولهم على الماء وما ابتلت سروج خيولهم.

ودعا الله تعالى أن لا يروا جسده إذا مات فلم يجدوه في اللحد. وجرى مثل ذلك في البحر لأبي مسلم الخولاني الذي ألقي في النار فإنه مشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمى بالخشب من مدها، فالتفت إلى أصحابه فقال: هل تفقدون من متاعكم شيئا حتى أدعو الله عز وجل فيه؟ فقال بعضهم: فقدت مخلاة

المخلاة: الآلة والأداة التي يُحش بها.

فقال اتبعني فاتبعه فوجدها قد تعلقت بشيء فأخذها، وطلبه الأسود العنسي لما ادعى النبوة فقال له: أتشهد أني رسول الله؟ قال ما أسمع قال أتشهد أن محمدا رسول الله؟ قال نعم، فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائما يصلي فيها وقد

صارت عليه بردا وسلاما؛ وقدم المدينة بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فأجلسه عمر بينه وبين أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وقال: الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني من أمة محمد صلى الله عليه وسلم من فعل به كما فعل بإبراهيم خليل الله.

ووضعت له جاريته السم في طعامه فأكله فلم يضره. وخببت امرأة عليه زوجته فدعا عليها فعميت فجاءت وتابت فدعا الله لها فرد الله عليها بصرها.

وكان عامر بن عبد قيس يأخذ عطاءه ألفي درهم في كمه وما يلقاه سائل في طريقه إلا أعطاه بغير عدد ثم يجيء إلى بيته فلا يتغير عددها أو وزنها.

ومر بقافلة قد حبسهم الأسد فجاء حتى مس بثيابه فم الأسد ثم وضع رجله على عنقه وقال: إنما أنت كلب من كلاب الرحمن وإني أستحي من الله أن أخاف شيئا غيره، ومرت القافلة.

ودعا الله تعالى أن يهون عليه الطهور في الشتاء فكان يؤتى بالماء له بخار، ودعا ربه أن يمنع قلبه من الشيطان وهو في الصلاة فلم يقدر عليه الشيطان.

وتغيب الحسن البصري عن الحجاج فدخلوا عليه ست مرات فدعا الله عز وجل فلم يروه ودعا على بعض الخوارج كان يؤذيه فخر ميتا.

وصلة بن أشيم مات فرسه وهو في الغزو فقال: اللهم لا تجعل لمخلوق علي منة ودعا الله عز وجل فأحيا له، فلما وصل إلى بيته قال يا بني خذ سرج الفرس فإنه عارية فأخذ سرجه فمات الفرس.

يوجد في كلام ابن تيمية في كتابه (النبوات) وغيره أنه يمكن للولي أن يحيي الموتى، وفسر ذلك في مواضع كهذا الموضع وأنه يدعو الله فيحييه، ولا يقال إنه يقول بإحياء الموتى، وإنما يدعو الله فيحيي الميت، وإلا إحياء الموتى خاص بالله، {ألم تر

إلى الذي حآج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت}.

فإبراهيم احتج عليه بأمر خاص بالله، فأتى إبراهيم بما بعد ذلك، قال ابن القيم في (الصواعق المرسلة): ولم ينتقل إبراهيم من حجة إلى حجة أخرى كما قال بعض النظّار –أي المتكلمين– وإنما انتقل إلى حجة تؤكد الأولى وهي لازمة لها، قال: {إن الله يأت بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب}.

فهذا يؤكد أن الذي يحيي ويميت هو الله سبحانه، وهذا يؤكد أن الإحياء والإماتة خاص بالله سبحانه وتعالى.

وجاع مرة بالأهواز فدعا الله عز وجل واستطعمه فوقعت خلفه دوخلة رطب في ثوب حرير فأكل التمر وبقي الثوب عند زوجته زمانا. وجاءه الأسد وهو يصلي في غيضة بالليل فلما سلم قال له اطلب الرزق من غير هذا الموضع فولى الأسد وله زئير.

وكان سعيد بن المسيب في أيام الحرة يسمع الأذان من قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقات الصلوات وكان المسجد قد خلا فلم يبق غيره.

ورجل من النخع كان له حمار فمات في الطريق فقال له أصحابه هلم نتوزع متاعك على رحالنا فقال لهم: أمهلوني هنيهة ثم توضأ فأحسن الوضوء وصلى ركعتين ودعا الله تعالى فأحيا له حماره فحمل عليه متاعه.

وهذا أيضًا فيه الدعاء.

ولما مات أويس القرني وجدوا في ثيابه أكفانا لم تكن معه قبل ووجدوا له قبرا محفورا فيه لحد في صخرة فدفنوه فيه وكفنوه في تلك الأثواب.

وكان عمرو بن عقبة بن فرقد يصلي يوما في شدة الحر فأظلته غمامة وكان السبع يحميه وهو يرعى ركاب أصحابه لأنه كان يشترط على أصحابه في الغزو أنه يخدمهم.

وكان مطرف بن عبد الله بن الشخير إذا دخل بيته سبحت معه آنيته وكان هو وصاحب له يسيران في ظلمة فأضاء لهما طرف السوط. ولما مات الأحنف بن قيس وقعت قلنسوة رجل في قبره فأهوى ليأخذها فوجد القبر قد فسح فيه مد البصر.

وكان إبراهيم التيمي يقيم الشهر والشهرين لا يأكل شيئا وخرج يمتار لأهله طعاما فلم يقدر عليه فمر بسلة حمراء فأخذ منها ثم رجع إلى أهله ففتحها فإذا هي حنطة حمراء فكان إذا زرع منها تخرج السنبلة من أصلها إلى فرعها حبا متراكبا.

وكان عتبة الغلام سأل ربه ثلاث خصال صوتا حسنا ودمعا غزيرا وطعاما من غير تكلف. فكان إذا قرأ بكى وأبكى ودموعه جارية دهره وكان يأوي إلى منزله فيصيب فيه قوته ولا يدري من أين يأتيه.

وكان عبد الواحد بن زياد أصابه الفالج فسأل ربه أن يطلق له أعضاءه وقت الوضوء فكان وقت الوضوء تطلق له أعضاؤه ثم تعود بعده.

وهذا باب واسع وقد بُسط الكلام على كرامات الأولياء في غير هذا الموضع. وأما ما نعرفه نحن عيان ونعرفه في هذا الزمان فكثير.

شيء رآه بعينه من الكرامات، وهذا كله رد على المعتزلة، لأنهم لا يؤمنون بالكرامات، فزيادة على ما تقدم من الأدلة أيضًا الواقع المنقول عن أمثال هؤلاء وهو متكاثر.

ثم شيء رآه شيخ الإسلام بعينه كما ذكر.

ومما ينبغي أن يعرف أن الكرامات قد تكون بحسب حاجة الرجل

وهذه قاعدة عظيمة تكتب بماء الذهب.

فإذا احتاج إليها ضعيف الإيمان أو المحتاج أتاه منها ما يقوي إيمانه ويسد حاجته ويكون من هو أكمل ولاية لله منه مستغنيا عن ذلك فلا يأتيه مثل ذلك لعلو درجته وغناه عنها لا لنقص ولايته؛ ولهذا كانت هذه الأمور في التابعين أكثر منها في الصحابة؛ بخلاف من تجري على يديه الخوارق لهداية الخلق أو لحاجتهم فهؤلاء أعظم درجة.

إذن كثرة الكرامات لا تدل على صلاح الرجل بل قد تكون لحاجته، وهذا رد على الصوفية الذين جعلوا أعظم مزايا صلاح الرجل وأنه من الأولياء أن تكثر الكرامات منه، وتجدون في التراجم يقولون : وله كرامات مشهودة..إلى آخر عباراتهم.

هذا بخلاف الأحوال الشيطانية مثل حال عبد الله بن صياد الذي ظهر في زمن النبي صلى الله عليه وسلم وكان قد ظن بعض الصحابة أنه الدجال وتوقف النبي صلى الله عليه وسلم في أمره حتى تبين له فيما بعد أنه ليس هو الدجال؛ لكنه كان من جنس الكهان، وقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «قد خبأت لك خبئا»، قال: الدخ الدخ. وقد كان خبأ له سورة الدخان، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «اخسأ فلن تعدو قدرك». يعني إنما أنت من إخوان الكهان؛ والكهان كان يكون لأحدهم القرين من الشياطين يخبره بكثير من المغيبات بما يسترقه من السمع وكانوا يخلطون الصدق بالكذب

وهذه فائدة عظيمة تدل على أن ما يخبر به الشيطان له أحوال:

- الحال الأولى: قد يخبر عن شيء في المستقبل وهذا مما استرق، وهذا قليل ويكذب معه الكذبات الكثيرة.
- الحال الثانية: أن قرينه يأخذ من قرينك، فيأخذ الأخبار من القرين.
- الحال الثالثة: يسأل الشيطان غيره من الشياطين في المناطق الأخر فيُخبرونه عن الغيب الجزئي.

فلذا إذا أتى أحد إلى هؤلاء الكهان وترى هذا في بعض الدول التي يوجد فيها الكهان، يأتي ويدفع له مالًا، فيقول له في بطنك شامة، واسم أمك كذا، فيبدأ يصدق في أمور يخبر بها القرين ويكون صادقًا، وقد يُخبر عن أمور من الماضي عن طريق القرين، ثم بعد ذلك يبدأ يكذب في المستقبل، وقد يقف على شيء عن طريق استراق الجن وهو قليل، بل قد يأتي ضعيف الإيمان ويسأل الكاهن والعراف ليدله على شيء ضائع، وهذا من الغيب الجزئي.

كما في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الملائكة تنزل في العنان –وهو السحاب– فتذكر الأمر قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم»، وفي الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما النبي صلى الله عليه وسلم في نفر من الأنصار إذ رمي بنجم فاستنار فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما كنتم تقولون لمثل هذا في الجاهلية إذا رأيتموه؟»، قالوا: كنا نقول يموت عظيم أو يولد عظيم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإنه لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته؛ ولكن ربنا تبارك وتعالى إذا قضى أمرا سبح حملة العرش ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء ثم يسأل أهل السماء السابعة حملة العرش ماذا قال ربنا؟ فيخبرونهم ثم يستخبر أهل كل سماء حتى يبلغ الخبر أهل السماء الدنيا وتخطف الشياطين السمع فيرمون فيقذفونه إلى أوليائهم فما جاءوا به على وجهه فهو حق ولكنهم يزيدون».

وفي رواية قال معمر: قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية قال نعم ولكنها غلظت حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم.

أي غلظت السماء وكثر رجوم الشياطين، حتى لا يسترقوا الوحي.

والأسود العنسي الذي ادعى النبوة كان له من الشياطين من يخبره ببعض الأمور المغيبة فلما قاتله المسلمون كانوا يخافون من الشياطين أن يخبروه بما يقولون فيه

تأملوا هذا كلام عظيم في إعانة الشياطين لأوليائهم.

حتى أعانتهم عليه امرأته لما تبين لها كفره فقتلوه.
وكذلك مسيلمة الكذاب كان معه من الشياطين من يخبره بالمغيبات ويعينه على بعض الأمور، وأمثال هؤلاء كثيرون مثل: الحارث الدمشقي الذي خرج بالشام زمن عبد الملك بن مروان وادعى النبوة وكانت الشياطين تخرج رجليه من القيد وتمنع السلاح أن ينفذ فيه وتسبح الرخامة إذا نقرها بيده وكان يُري الناس بجبل قاسيون رجالا وركبانا على خيل في الهواء ويقول: هي الملائكة وإنما كانوا جنا ولما أمسكه المسلمون ليقتلوه فطعنه طاعن بالرمح فلم ينفذ فيه فقال له عبد الملك: إنك لم تسم الله، فسمي واطعنه، فقتله.

لا إله إلا الله، تخيلوا لو كان هذا في وقتنا، كم سيفتن من الخلق؟ وكم سيتناقل في مواقع التواصل؟، الآن إذا قتل من هؤلاء الخوارج توهموا أنه مبتسم، وتناقلوه، وكثر الكذب، حتى سمعت أحدهم أيام اشتداد الخوارج عندنا قالوا لما قتل فلان وغسلوه ازدحم الناس وهم يشمون رائحة العود الذي لم يشموا مثله من قبل، وهو من الكذب لأن مثل هذا لو وقع لطارت به الركبان، ومع ذلك يزيدون هذا كذبًا، لذا لنفرض أن هذا حصل وزيادة، فلا نغير دين الله لأمثال هذه الأمور، وهذا يزيد المؤمن قوة وثباتًا وتمسكًا بالكتاب وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأن لا يغتر بما تجريه الشياطين على أيديهم أو تفعله بهم.

وهكذا أهل الأحوال الشيطانية تنصرف عنهم شياطينهم إذا ذكر عندهم ما يطردهم مثل آية الكرسي فإنه قد ثبت في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث أبي هريرة رضي الله عنه لما وكله النبي صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة الفطر فسرق منه الشيطان ليلة بعد ليلة وهو يمسكه فيتوب فيطلقه فيقول له النبي صلى الله عليه وسلم: «ما فعل أسيرك البارحة؟»، فيقول: زعم أنه لا يعود فيقول: «إنه سيعود»، فلما كان في المرة الثالثة. قال له: دعني حتى أعلمك ما ينفعك، إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي {الله لا إله إلا هو الحي القيوم} إلى آخرها، فإنه لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فلما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم قال: «صدقك وهو كذوب»، وأخبره أنه شيطان.

هذا الحديث لم يخرجه البخاري وإنما ذكره معلقًا، هذا أولًا، وثانيًا: في هذا الحديث ما يدل على أن الشيطان يتمثّل بالإنس، وكما روى مسلم في مقدمته عن عبد الله ابن مسعود: " إن الشيطان ليتمثل في صورة الرجل، فيأتي القوم، فيحدثهم بالحديث من الكذب، فيتفرقون، فيقول الرجل منهم: سمعت رجلا أعرف وجهه، ولا أدري ما اسمه يحدث "لذا يجب أن نكون حذرين، وإذا حصل هذا في الأزمان الماضية التي ذكرها ابن مسعود فزمننا من باب أولى وأولى، ولا تستبعدن أن كثيرًا من دعاة الفتنة والخوارج والبدعة والصوفية والرافضة من هؤلاء الشياطين.

ثم قد يقرأ الرجل آية الكرسي ولا يندحر الشيطان، وهذا لا يدل على أنها ليست سببًا لدحره، وإنما لضعفه في قراءتها، فإن السبب لا يتم إلا بانتفاء الموانع وتوافر

الشروط، كما قد يذكر الرجل أذكار الصباح والمساء ويصاب بما قد يصاب، وقد أصيب النبي –صلى الله عليه وسلم- بالسحر ولا بد أنه قد قرأ هذه الأذكار –صلى الله عليه وسلم-، إذن قد يُصاب الرجل وقد لا تنفع القراءة لا لأنها ليست كذلك وإنما لتخلف شرط أو وجود مانع، وفي حق النبي –صلى الله عليه وسلم- لحكمة كان يريدها رب العالمين سبحانه.

ولهذا إذا قرأها الإنسان عند الأحوال الشيطانية بصدق أبطلتها مثل من يدخل النار بحال شيطاني أو يحضر سماع المكاء والتصدية

بل قد يقرأها بصدق ولا تبطل امتحانًا وابتلاءً كما حصل للنبي –صلى الله عليه وسلم- وأصيب بالسحر.

فتنزل عليه الشياطين وتتكلم على لسانه كلاما لا يعلم به وربما لا يفقه وربما كاشف بعض الحاضرين بما في قلبه وربما تكلم بألسنة مختلفة كما يتكلم الجني على لسان المصروع الإنسي الذي حصل له الحال لا يدري بذلك بمنزلة المصروع الذي يتخبطه الشيطان من المس

لا إله إلا الله، يتكلم على لسان الإنسي صاحبك بكلام وهو من الجن! أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ولبسه وتكلم على لسانه فإذا أفاق لم يشعر بشيء مما قال ولهذا قد يضرب المصروع ضربًا كثيرًا

وقد حصل أن الجني تكلم على لسان النبي –صلى الله عليه وسلم– في اليقظة وهو لا يدري كما في قصة الغرانيق، وهو يصلي ويقرأ فقرأ الشيطان على لسانه: "تلك الغرانيق العلا وإن شفاعتهن لترتجى"، وهذه القصة قصة الغرانيق فتنة وقد تكلم الشيطان على لسان النبي –صلى الله عليه وسلم– وهذه القصة قد رواها جمع من التابعين باختلاف بلدانهم فيقوي بعضها بعضًا وأسانيدها مراسيل صحيحة يقوي بعضها بعضًا، ثم أجمع السلف على صحتها، حكى الإجماع شيخ الإسلام ابن تيمية كما في (مجموع الفتاوى) وابن القيم في (إغاثة اللهفان)، فالسلف على تصحيحها فلا يُلتفت لمن أنكرها والسلف على تصحيح هذه القصة، وتكلم ابن القيم كلامًا مفيدًا في بيان صحة هذه القصة وأن السلف على القول بها.

وقد يقول قائل: ما الدليل على ضرب الممسوس؟ ولم يصح فيه حديث، لكن العلاج والتداوي يرجع فيه إلى التجارب، فإذا صحت التجربة صح أن يُتخذ سببًا ومن ذلك الضرب، لكن لا يفعل هذا إلا من يُحسنه، فقد حصل قبل سنين أن أحدهم ضرب رجلًا ظنه ممسوسًا فإذا به قد قتله، فلا يقدم على هذا إلا من كان ذا معرفة.

ويخبر إذا أفاق أنه لم يشعر بشيء لأن الضرب كان على الجني الذي لبسه.

وتلبس الجني بالإنسي دل عليه الكتاب والسنة والإجماع، قال سبحانه: {كالذي يتخبطه الشيطان من المس}، وفي البخاري قال: «إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم»، أما الإجماع فقد حكاه شيخ الإسلام ابن تيمية كما في (مجموع الفتاوى)، وحكاه شيخنا ابن باز –رحمه الله– في فتاواه، ولم ينكر ذلك إلا المعتزلة ونحوهم.

ومن هؤلاء من تأتيه الشيطان بأطعمة وفواكه وحلوى وغير ذلك مما لا يكون في ذلك الموضع، ومنهم من يطير به الجني إلى مكة أو بيت المقدس وغيرهما ومنهم من تحمله عشية عرفة ثم تعيده من ليلته ولا يحج حجا شرعيا؛ بل يذهب بثيابه ولا يحرم إذا جاء الميقات ولا يلبي ولا يبيت ولا يقف بمزدلفة ولا يطوف بالبيت؛ ولا يسعى بين الصفا والمروة ولا يرمي الجمرات، بل يقف بعرفة بثيابه ثم يرجع من ليلته وهذا ليس بحج مشروع باتفاق المسلمين، بل هو كمن يأتي الجمعة ويصلي بغير وضوء أو إلى غير القبلة.

ومن هؤلاء المحمولين من حُمل مرة إلى عرفات ورجع، فرأى في النوم ملائكة يكتبون الحجاج، فقال: ألا تكتبوني؟ فقالوا: لست من الحجاج. يعني لم تحج حجًا شرعيا.

وبين كرامات الأولياء وبين ما يشبهها من الأحوال الشيطانية فروق متعددة:

أعاد هذا لكن بينه بوضوح، وهذه الفروق ينبغي أن تُضبط حتى يُفرق بين الحق والباطل، إذن سبب كرامات الأولياء الإيمان والتقوى، أما سبب الخوارق التي تكون على أيدي الشياطين معصية رب العالمين.

منها أن كرامات أولياء الله تعالى سببها الإيمان والتقوى والأحوال الشيطانية يكون سببها ما نهى الله عنه ورسوله، ويستعان بها على ما نهى الله عنه ورسوله، وقد قال الله تعالى: {قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون}، فالقول على الله بغير علم والشرك والظلم والفواحش قد حرمها الله تعالى ورسوله فلا تكون سببا لكرامة الله تعالى ولا يُستعان بالكرامات عليها

إذن هذا هو الفرق الثاني، وهو أن الكرامات تستعمل في الطاعة وفيما ينصر الدين..إلخ، وفيما ينفع في المباح، بخلاف الخوارق فإنها تستعمل في معصية الله.

وإنما كانت تحصل بالصلاة والذكر وقراءة القرآن والدعاء، لا تحصل بما يحبه الشيطان وبالأمور التي فيها شرك كالاستعانة بالمخلوقات إذا كانت مما يستعان بها على ظلم الخلق وفعل الفواحش فهي من الأحوال الشيطانية لا من الكرامات الرحمانية. ومن هؤلاء من إذا حضر سماع المكاء والتصدية يتنزل عليه شيطانه حتى يحمله في الهواء ويخرجه من تلك الدار فإذا حضر رجل من أولياء الله تعالى طرد شيطانه فيسقط كما جرى هذا لغير واحد. ومن هؤلاء من يستغيث بمخلوق إما حي أو ميت سواء كان ذلك المخلوق مسلما أو نصرانيا

أو مشركا فيتصور الشيطان بصورة ذلك المستغاث به ويقضي بعض حاجات ذلك المستغيث فيظن أنه ذلك الشخص أو هو ملك تصوّر على صورته وإنما هو شيطان أضله لما أشرك بالله كما كانت الشياطين تدخل في الأصنام وتكلم المشركين.

وهذه من المواضع الكثيرة لشيخ الإسلام أن صرف العبادة لغير الله ومن ذلك الدعاء والاستغاثة شرك أكبر، وهذه من المعارك التي حصلت بين شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب وخصومه في زمنه، كانوا يزعمون أن ابن تيمية لا يصف هذه الأمور بأنها شرك أكبر، وإذا قال: شرك، أراد الشرك الأصغر، فألف شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رسالة بعنوان: (مفيد المستفيد بكفر تارك التوحيد)، وهذه الرسالة قائمة على أساسين:

الأساس الأول: أن صرف العبادة لغير الله شرك أكبر، وقد دلت على ذلك الأدلة وأن هذا كلام ابن تيمية وابن القيم، فإن هذين العالمين كانا معظمين في ذاك الزمن، حتى بين أهل نجد قبل أن تظهر دعوة الشيخ، فألف هذه الرسالة ليبين أن صرف العبادة لغير الله شرك أكبر بالأدلة وبكلام شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم ثم رد النصوص من كلام الشيخين التي توهموها.

الأساس الثاني: أقام الرسالة على أن المعين قد يكفر بعد إسلامه، وقد يرتد ولا يُقال إنه لا يكفر أحد بعد إسلامه إذا تلبس بما يقتضي الكفر.

هذان الأساسان لأجلهما ألف كتابه (مفيد المستفيد في كفر تارك التوحيد)، وليس له علاقة لا من قريب ولا من بعيد بالعذر بالجهل، وإنما قاما على هذين

الأساسين، وقد يشير إشارات بما يتعلق فيما يُعذر فيه الرجل وما لا يُعذر فيه الرجل إشارة وعرضًا ولم يقصدها قصدًا، لذلك لم يُسهب الكلام فيهما كما أسهبه في هذين الأمرين الذين سبق ذكرهما.

ومن هؤلاء من يتصور له الشيطان ويقول له: أنا الخضر وربما أخبره ببعض الأمور وأعانه على بعض مطالبه كما قد جرى ذلك لغير واحد من المسلمين واليهود والنصارى وكثير من الكفار بأرض المشرق والمغرب يموت لأحدهم الميت فيأتيه الشيطان بعد موته على صورته وهم يعتقدون أنه ذلك الميت ويقضي الديون ويرد الودائع ويفعل أشياء تتعلق بالميت ويدخل إلى زوجته ويذهب وربما يكونون قد أحرقوا ميتهم بالنار كما يصنع كفار الهند فيظنون أنه عاش بعد موته. ومن هؤلاء شيخ كان بمصر أوصى خادمه فقال: إذا أنا مت فلا تدع أحدا يغسلني فأنا أجيء وأغسل نفسي فلما مات رآى خادمه شخصا في صورته فاعتقد أنه هو دخل وغسل نفسه فلما قضى ذلك الداخل غسله – أي غسل الميت – غاب وكان ذلك شيطانا وكان قد أضل الميت وقال: إنك بعد الموت تجيء فتغسل نفسك فلما مات جاء أيضا في صورته ليغوي الأحياء كما أغوى الميت قبل ذلك.

ومنهم من يرى عرشا في الهواء وفوقه نور أو قائل ويقول أنا ربك فإذا كان من أهل المعرفة علم أنه شيطان فزجره واستعاذ بالله منه فيزول ذلك.

كنت قد قابلت عامة من عوام مصر في مكة، وكنت أتكلم وإياهم عن التوحيد وهم مجموعة وكبار في السن، قالوا: رأينا بأعيننا أن رجلًا صالحًا مات فغسلوه

وكفنوه وأرادوا أن يدخلوا به المسجد وما استطاعوا واعترض، واجتهدوا وما استطاعوا، فأتى رجل فتكلم في أذنه، وقال: يا مولانا –أو عبارة مثل هذه– قد أتعبتنا وكذا، ثم استقام فصلوا عليه.

هو لو حدثني بها واحد منهم لقلت لعله يكذب، لكن أكثر من واحد من كبار السن، وهذا الأمر لو كان في زمننا هذا لعله يُصور وينتشر، لكن الكلام الذي قاله كان قبل عشرين سنة أو أكثر، فالمقصود إن صدقوا فلا يُستبعد أن الشياطين تتلاعب بهم كما يذكر شيخ الإسلام –رحمه الله–.

ومنهم من يرى أشخاصا في اليقظة يدعي أحدهم أنه نبي أو صدّيق أو شيخ من الصالحين ويكون من الشياطين، وقد جرى هذا لغير واحد منهم، وهؤلاء منهم من يرى ذلك عند قبر من يزوره ويرى القبر قد انشق وخرج إليه صورة يعتقد أنه الميت، وإنما هو جني يتصور في تلك الصورة.

ومنهم من يرى فارسًا قد خرج من القبر ودخل في القبر ويكون ذلك شيطانًا، وسُئل من؟، قال: إنه رأى شيئًا بعين رأسه –وهو صادق– فما رأى إلا جنيًا.

ومنهم من يرى في منامه أن بعض الأكابر: إما الصديق أو غيره قد قص شعره أو حلقه أو ألبسه طاقيته أو ثوبه فيصبح وعلى رأسه طاقية وشعره محلوق أو مقصوص وإنما الجن قد حلقوا شعره أو قصوه

والأمر خطير للغاية، فتنة جهيمان التي حصلت في عام ١٤٠٠ من هجرة النبي –صلى الله عليه وسلم– كان من يدّعى أنه هو المهدي ممتنعًا ومعارضًا، فألحوا عليه إلحاحًا شديدًا، حتى لما استيقظوا في يوم رأى خمسون رجلًا رؤيا أنه المهدي، ومع

ذلك تماسك، وكثرت عليه الرؤى حتى حدثني أحد المشايخ ممن أدرك ذاك الوقت ويعرف الرجل، قال: فكان يسير في طريق وكان الناس ذاك الوقت عندهم آبار يُخرجون منها الماء خاصة في القرى والهجر، فقابل امرأة عجوزًا كبيرة في السن تزعب الماء فالتفتت فرأت هذا الذي يقال إنه المهدي، فأقسمت بالله أنها رأت الرجل في المنام أنه هو المهدي، ففُتن بمثل هذا وكان هذا أشد ما فتنه.

فالرؤى خطيرة وينبغي للإنسان أن يكون حذرًا، وأعرف من إخواننا من تفاعل مع الرؤى وكلما رأى رؤيا استجاب لها، فكثرت عليه الرؤى كثيرًا، وكانوا اثنين، فبدأوا يشعرون أن الرؤى تتكاثر وتسيرهم في طريق، ويسألون معبرًا فيعبر لهم، وكأن الرؤى تسيرهم في طريق معين وتريد أن تخرجهم من السنة، فانتبهوا، فذكّر بعضهم بعضًا وانتهوا، ثم انقطعت عنهم الرؤى، إذن ينبغي أن يكون الرجل حذرًا وأن ينتبه وأن يتعلق بالله ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذه أمور ذكرها شيخ الإسلام وقد نُبتلى بها وننساها، وقد يأتي الشيطان بغيرها فلا حول ولا قوة إلا بالله.

وهذه الأحوال الشيطانية تحصل لمن خرج عن الكتاب والسنة وهم درجات والجن الذين يقترنون بهم من جنسهم وهم على مذهبهم والجن فيهم الكافر والفاسق والمخطئ فإن كان الإنسي كافرا أو فاسقا أو جاهلا دخلوا معه في الكفر والفسوق والضلال وقد يعاونونه إذا وافقهم على ما يختارونه من الكفر مثل الإقسام عليهم بأسماء من يعظمونه من الجن وغيرهم ومثل أن يكتب أسماء الله أو بعض كلامه بالنجاسة أو يقلب فاتحة الكتاب أو سورة الإخلاص أو آية

الكرسي أو غيرهن ويكتبها بنجاسة فيغورون له الماء وينقلونه بسبب ما تضله به من الكفر. وقد يأتونه بمن يهواه من امرأة أو صبي إما في الهواء مرفوعًا ملجأً إلى عنده. إلى أمثال هذه الأمور التي يطول وصفها والإيمان بها إيمان بالجبت والطاغوت، قال الله تعالى: {ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبًا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت}الآية، والجبت: السحر، والطاغوت: الشياطين والأصنام وإن كان الرجل مطيعا لله ورسوله ظاهرًا وباطنًا لم يمكنهم الدخول معه في ذلك أو مسالمته. ولهذا لما كانت عبادة المسلمين المشروعة في المساجد التي هي بيوت الله كان عمار المساجد أبعد عن الأحوال الشيطانية وكان أهل الشرك والبدع الذين يعظمون القبور ومشاهد الموتى فيدعون الميت أو يدعون به أو يعتقدون أن الدعاء عنده مستجاب أقرب إلى الأحوال الشيطانية فإنه ثبت في الصحيحين عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وثبت في صحيح مسلم عنه أنه قال قبل أن يموت بخمس ليال: «إن من آمن الناس علي في صحبته وذات يده أبو بكر ولو كنت متخذا من أهل الأرض خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن صاحبكم خليل الله. لا يبقين في المسجد خوخة إلا سدت إلا خوخة أبي بكر إن من كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد فإني أنهاكم عن ذلك».

وفي الصحيحين عنه صلى الله عليه وسلم أنه ذكر له في مرضه كنيسة بأرض الحبشة وذكروا من حسنها وتصاوير فيها فقال: «إن أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا وصوروا فيها تلك التصاوير أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة»، وفي المسند وصحيح أبي حاتم عنه صلى الله عليه وسلم قال: «إن من شرار الخلق من تدركهم الساعة وهم أحياء والذين اتخذوا

القبور مساجد»، وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تجلسوا على القبور ولا تصلوا إليها»، وفي الموطأ عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنا يعبد اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تتخذوا قبري عيدا وصلوا علي حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني». وقال صلى الله عليه وسلم: «ما من رجل مسلم يصلي عليّ إلا رد الله علي روحي حتى أرد عليه السلام»، وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله وكل بقبري ملائكة يبلغوني عن أمتي السلام»، وقال صلى الله عليه وسلم: «أكثروا علي من الصلاة يوم الجمعة وليلتها؛ فإن صلاتكم معروضة علي»، قالوا: يا رسول الله كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ – أي بليت؟ – فقال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء». وقد قال الله تعالى في كتابه عن المشركين من قوم نوح عليه السلام: {وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا}، قال ابن عباس وغيره من السلف: هؤلاء قوم كانوا صالحين من قوم نوح فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوروا تماثيلهم فعبدوهم فكان هذا مبدأ عبادة الأوثان.

فنهى النبي صلى الله عليه وسلم عن اتخاذ القبور مساجد ليسد باب الشرك كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس ووقت غروبها؛ لأن المشركين يسجدون للشمس حينئذ والشيطان يقارنها وقت الطلوع ووقت الغروب فيكون في الصلاة حينئذ مشابهة لصلاة المشركين فسد هذا الباب. والشيطان يضل بني آدم بحسب قدرته فمن عبد الشمس والقمر والكواكب ودعاها – كما يفعل أهل دعوة الكواكب – فإنه ينزل عليه شيطان يخاطبه ويحدثه ببعض الأمور ويسمون ذلك روحانية الكواكب وهو شيطان، والشيطان وإن أعان الإنسان

على بعض مقاصده فإنه يضره أضعاف ما ينفعه وعاقبة من أطاعه إلى الشرك إلا أن يتوب الله عليه

وهذا رأيته رأي العين من كثير من القرّاء الذين يقرأون على المرضى، تراهم يستعينون بالشياطين، ويستعينون بالقرين، ثم مع الأيام يشتهرون بين الناس، فينفعهم الشيطان في هذا الباب ثم يفتنهم والعياذ بالله فيوقعهم في الشرك أو في وسائل الشرك أو في أمور أخرى مما حرم الله، إلى أن يزيغهم ويضلهم –والعياذ بالله–.

فينبغي على من يعلم مثل هؤلاء القرّاء أن ينصحوا ويبين لهم، فإنهم يبالغون ويأتون بأمور لا تُعلم إلا عن طريق القرين، حتى إن أحدهم على الهواء مباشرة تتصل عليه امرأة فيقول: اسمك كذا؟ ومثلهم أيضًا معبروا الرؤى، فإن الشياطين تتلاعب بهم، وقد عايشت رجلًا اشتهر عند الناس بحسن التعبير وهو غارق في باب الاستعانة بالشياطين –عافاني الله وإياكم– إلى أن كفى الله شره.

فينبغي أن نكون حذرين من تلاعب الشياطين لا سيما من هذين الصنفين القرّاء والمعبرين.

وكذلك عباد الأصنام قد تخاطبهم الشياطين وكذلك من استغاث بميت أو غائب وكذلك من دعا الميت أو دعا به أو ظن أن الدعاء عند قبره أفضل منه في البيوت والمساجد ويروون حديثا هو كذب باتفاق أهل المعرفة: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور»، وإنما هذا وضع من فتح باب الشرك. ويوجد لأهل البدع وأهل الشرك المتشبهين بهم من عباد الأصنام والنصارى والضلال

من المسلمين أحوال عند المشاهد يظنونها كرامات وهي من الشياطين: مثل أن يضعوا سراويل عند القبر فيجدونه قد انعقد أو يوضع عنده مصروع فيرون شيطانه قد فارقه. يفعل الشيطان هذا ليضلهم وإذ قرأت آية الكرسي هناك بصدق بطل هذا فإن التوحيد يطرد الشيطان؛ ولهذا حمل بعضهم في الهواء فقال: لا إله إلا الله فسقط ومثل أن يرى أحدهم أن القبر قد انشق وخرج منه إنسان فيظنه الميت وإنما هو شيطان، وهذا باب واسع لا يتسع له هذا الموضع.

ولما كان الانقطاع إلى المغارات والبوادي من البدع التي لم يشرعها الله ورسوله صارت الشياطين كثيرا ما تأوي إلى المغارات والجبال: مثل مغارة الدم التي بجبل قاسيون وجبل لبنان الذي بساحل الشام وجبل الفتح الذي بصعيد مصر وجبال بالروم وخراسان وجبال بالجزيرة وغير ذلك وجبل اللكام وجبل الأحيش وجبل سولان قرب أردبيل وجبل شهنك عند تبريز وجبل ماشكو عند نقشوان وجبل نهاوند وغير ذلك من الجبال التي يظن بعض الناس أن بها رجالا من الإنس صالحين ويسمونهم رجال الغيب وإنما هناك رجال من الجن فالجن رجال كما أن للإنسان رجال قال تعالى: {وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا}.

ومن هؤلاء من يظهر بصورة رجل شعراني جلده يشبه جلد الماعز فيظن من لا يعرفه أنه إنسي وإنما هو جني ويقال بكل جبل من هذه الجبال الأربعون أبدال، وهؤلاء الذين يظنون أنهم الأبدال هم جن بهذه الجبال كما يعرف ذلك بطرق متعددة. وهذا باب لا يتسع هذا الموضع لبسطه وذكر ما نعرفه من ذلك فإنا قد رأينا من ذلك وسمعنا ما يطول وصفه في هذا المختصر الذي كتب لمن يسأل أن نذكر له من الكلام على أولياء الله تعالى ما يعرف به جمل ذلك.

والناس في خوارق العادات على ثلاثة أقسام: قسم يكذب بوجود ذلك لغير الأنبياء وربما صدق به مجملا وكذب ما يذكر له عن كثير من الناس لكونه عنده ليس من الأولياء. ومنهم من يظن أن كل من كان له نوع من خرق العادة كان وليا لله تعالى، وكلا الأمرين خطأ ولهذا تجد أن هؤلاء يذكرون أن للمشركين وأهل الكتاب نصراء يعينونهم على قتال المسلمين وأنهم من أولياء الله. وأولئك يكذبون أن يكون معهم من له خرق عادة، والصواب القول الثالث وهو أن معهم من ينصرهم من جنسهم لا من أولياء الله عز وجل

القسم الأول لا يبعد أن يكون المراد المعتزلة أو بعض من يُنكر أمثال هذه الأمور، ويبالغ في العقليات وينكر كثيرًا من الغيبيات، والقسم الثاني في الصوفية ونحوهم الذين جعلوا الكرامات علامة على صلاح الرجل، كما يمدحون الرجل بأن له كرامات..إلى غير ذلك.

كما قال الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم}، ومن هؤلاء العباد والزهاد الذين ليسوا من أولياء الله المتقين المتبعين للكتاب والسنة فتقترن بهم الشياطين فيكون لأحدهم من الخوارق ما يناسب حاله؛ لكن خوارق هؤلاء يعارض بعضه بعضا وإذا حصل من له تمكن من أولياء الله تعالى أبطلها عليهم ولا بد أن يكون في أحدهم من الكذب جهلا أو عمدا ومن الإثم ما يناسب حال الشياطين المقترنة بهم ليفرق الله بذلك بين أوليائه المتقين وبين المتشبهين بهم من

أولياء الشياطين. قال الله تعالى {هل أنبئكم على من تنزل الشياطين} {تنزل على كل أفاك أثيم} والأفاك الكذاب.

إذن أكد أن من الفروق بين خوارق العادات والكرامات حال الرجل، فلذلك لو قالوا في رجل إنه عالم أو عابد أو ولي لله وهو يُشرك بالله أو يُقر الشرك فليس وليًا لله مهما زعموا مما يحصل له من الكرامات أو غير ذلك، أو كان يقر البدع.

لذا من المهم أن تعرف هذا الرجل، لا يمكن للصوفي الضال المبتدع أن يستدل بالكرامات على الشرك أو البدعة أو ما حرم الله، من أي طريق يأتي فإنه يُغلق الباب عليه، ماذا تريد بالكرامات؟ ما حرم الله؟ إذن لست وليًا ولا يصح، إن زعمت أن عندك كرامات وأنت تطلب من الناس أن يفعلوا المحرمات فلست وليًا لله، وإن زعمت أنك تعلم الغيب في المستقبل فأنت كاذب..وعلى هذا فقس، ومن زعم أن الكرامات دليل صلاح يقال: ليس لازمًا.

والأثيم: الفاجر. ومن أعظم ما يقوي الأحوال الشيطانية سماع الغناء والملاهي وهو سماع المشركين قال الله تعالى: {وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية} قال ابن عباس وابن عمر وغيرهما من السلف (التصدية) التصفيق باليد و (المكاء) مثل الصفير

وهذا يذكره شيخ الإسلام في الرد على الصوفية الذين يتعبدون بالسماع البدعي، وهو في زماننا الآن الأناشيد الإسلامية، فإن التعبد بها من جنس فعل الصوفية، مهما حاولوا أن يؤولوا النتيجة هي فعل الصوفية، ودخل هذا على شبابنا الحركي

في السعودية وغيرها عن طريق دعوة حسن البنا الإخواني، فإن حسنًا البنا كان صوفيًا بايع على الطريقة الحصافية، وكان يُنشد الأناشيد الصوفية، فدخلت على شبابنا، وهذه الأناشيد هي أناشيد الصوفية.

وكان المشركون يتخذون هذا عبادة وأما النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فعبادتهم ما أمر الله تعالى بها من الصلوات والقراءة والذكر والدعاء ونحو ذلك والاجتماعات الشرعية ولم يجتمع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه على استماع غناء قط لا بكف ولا بدف ولا تواجد ولا سقطت بردته؛ بل كل ذلك كذب باتفاق أهل العلم بحديثه. وكان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا اجتمعوا أمروا واحدا منهم أن يقرأ والباقون يستمعون وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري: ذكرنا ربنا فيقرأ وهم يستمعون ومر النبي صلى الله عليه وسلم بأبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال له: «مررت بك البارحة وأنت تقرأ القرآن فجعلت أستمع لقراءتك»، فقال: لو علمت أنك تستمع لحبرته لك تحبيرا

وهذا ليس شركًا وإنما هو تشريك، وفرق بين الشرك والتشريك، الشرك: يفعل عبادة للرياء ولمدح الناس وثنائهم..إلخ، هذا هو الشرك، وهو شرك أصغر، أما التشريك يفعل عبادة لدافع عبادة أخرى، وهنا عبادة القرآن وتحسين الصوت لعبادة الاستفادة من سماع القرآن، فإذا حسّن صوته استفاد النبي -صلى الله عليه وسلم- من القرآن أكثر، لذلك قال: «زينوا القرآن بأصواتكم»، فإذن التشريك يفعل العبادة لدافع عبادة، وفيها تفصيل وقد تكلم عليها الشاطبي -رحمه الله- في

كتابه (الموافقات)، فإذن هذا ليس شركًا أصغر وليس رياءً لأنه لم يفعل عبادة لدافع ثناء الناس ومدحهم وإنما فعل عبادة لدافع عبادة أخرى.

وقد يكون التشريك لدافع دنيوي، ثم قد يكون محرمًا أو جائزًا بحسب الحال ومن التشريك قوله تعالى {فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفّارًا يرسل السماء عليكم مدرارًا ويمددكم بأموال وبنين}الآية، فيفعل عبادة الاستغفار لحظ دنيوي لحصول الولد وغير ذلك، وهذا جائز بشرط أن يكون الدافع التعبدي غالبًا، والحظ الدنيوي تابعًا، ومطلق التشريك لدافع دنيوي ينقص الأجر بحسب دافعه الدنيوي، ومن التشريك تشريك عبادة لأجل عبادة ومثل هذا يكون أجره أكثر، كما أخرج البخاري من حديث ابن مسعود: «فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»، فالصوم عبادة، ويفعل لعبادة أخرى وهي أن يعف نفسه عما حرم الله، وهذا تشريك، عبادة بعبادة.

أي لحسنته لك تحسينا كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «زينوا القرآن بأصواتكم»، وقال صلى الله عليه وسلم: «لله أشهد أذنا أي استماعا إلى الرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته»، وقال النبي صلى الله عليه وسلم لابن مسعود: «اقرأ علي القرآن»، فقال: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ فقال: «إني أحب أن أسمعه من غيري»، قال: فقرأت عليه سورة النساء حتى انتهيت إلى هذه الآية {فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا} قال: «حسبك الآن» فإذا عيناه تذرفان من البكاء.

ومن العبادات عبادة الاستماع للقرآن، وقد ذكر ابن القيم في كتابه (الفوائد) أن من هجر القرآن هجر سماعه، كما نتعبد الله بتلاوته، أيضًا ينبغي أن نتعبد الله بسماعه، فإن تقصد سماع القرآن من غيرك ممن أوتي صوتًا حسنًا موافقًا للشرع مرتلًا محسنًا مجودًا، ويُقرأ بلا تكلف، لا كقراءة كثير من هؤلاء الذين يقرأون على أوزان معينة وعندهم تكلف، وإنما القراءة المرتلة أي المحزنة والتي فيها حزن وفيها حسن صوت بلا تكلف كما ذكر ذلك ابن كثير، وذكره غيره، وممن تكلم على ذلك الطرطوشي –رحمه الله– في كتابه في البدع، فالمقصود أن تقصد سماع القرآن عبادة، وقد يهجرها أقوام ويكتفون بمجرد قراءتهم، والسماع عبادة كما أن القراءة عبادة أخرى.

ومثل هذا السماع هو سماع النبيين وأتباعهم كما ذكره الله تعالى في القرآن فقال: {أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا}

لذا مما يُشرع أن يبكي الإنسان عند تلاوة القرآن، فإن لم يبك فليتباك كما ثبت عند الحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وهذه عبادة، قال سبحانه: {يخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا}، لابد أن تجاهد النفس بالبكاء حتى تتعود.

وقال في أهل المعرفة قال تعالى: {وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق} ومدح سبحانه أهل هذا السماع بما يحصل

لهم من زيادة الإيمان ومن آثار ذلك اقشعرار الجلد ودمع العين فقال تعالى: {الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله} وقال تعالى: {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون} {الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون} {أولئك هم المؤمنون حقا لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم}.

وأما السماع المحدث سماع الكف والدف والقصب فلم تكن الصحابة والتابعون لهم بإحسان وسائر الأكابر من أئمة الدين يجعلون هذا طريقا إلى الله تبارك وتعالى ولا يعدونه من القرب والطاعات بل يعدونه من البدع المذمومة حتى قال الشافعي: خلفت ببغداد شيئا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن وأولياء الله العارفون يعرفون ذلك ويعلمون أن للشيطان فيه نصيبا وافرا ولهذا تاب منه خيار من حضره منهم.

فمن يسمع الأناشيد ليرقق قلبه أو يقول لئلا أسمع الغناء، أو لأتأثر فأقوم بالطاعات والعبادات، يقال هذه وسيلة، وهذه الوسيلة لم يفعلها النبي –صلى الله عليه وسلم– ولا صحابته وقد وجد المقتضي أي السبب المحوج لفعلها وانتفى المانع، فإذا كان كذلك فتكون الوسيلة بدعة، قد قرر ابن تيمية في كتابه (اقتضاء الصراط المستقيم) قاعدة عظيمة فارقة بين البدع المحدثة والوسائل التي تسمى بالمصالح المرسلة، وذكر ما تقدم ذكره، ومن ذلك الأناشيد الإسلامية والتمثيل المسمى بالتمثيل الإسلامي.

ثم ذكر تنبيهًا مهمًا للغاية، فقال: فإن قيل: إن الناس لذنوبهم يحتاجون إلى هذه الوسائل، قال: يؤمر الناس أن يدعوا ذنوبهم وأن يتوبوا إلى الله ولا يُغير الدين لأجل ذنوبهم ومعاصيهم.

ومن كان أبعد عن المعرفة وعن كمال ولاية الله كان نصيب الشيطان منه أكثر وهو بمنزلة الخمر بل هو يؤثر في النفوس أعظم من تأثير الخمر؛ ولهذا إذا قويت سكرة أهله نزلت عليهم الشياطين وتكلمت على ألسن بعضهم وحملت بعضهم في الهواء وقد تحصل عداوة بينهم كما تحصل بين شراب الخمر فتكون شياطين أحدهم أقوى من شياطين الآخر فيقتلونه ويظن الجهال أن هذا من كرامات أولياء الله المتقين وإنما هذا مبعد لصاحبه عن الله وهو من أحوال الشياطين؛ فإن قتل المسلم لا يحل إلا بما أحله الله فكيف يكون قتل المعصوم مما يكرم الله به أولياءه، وإنما غاية الكرامة لزوم الاستقامة فلم يكرم الله عبدا بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه ويزيده مما يقربه إليه ويرفع به درجته.

وهذه قاعدة عظيمة، غاية الكرامة لزوم الاستقامة، وهي بيد كل واحد منا بعد إعانة الله.

وذلك أن الخوارق منها ما هو من جنس العلم كالمكاشفات ومنها ما هو من جنس القدرة والملك كالتصرفات الخارقة للعادات

وتقدم هذا في المقدمات وأن الكرامات نوعان.

ومنها ما هو من جنس ما يُعطاه الناس في الظاهر من العلم والسلطان والمال والغنى. وجميع ما يؤتيه الله لعبده من هذه الأمور وغيرها إن استعان به على ما يحبه الله ويرضاه ويقربه إليه ويرفع درجته ويأمر الله به ورسوله ازداد بذلك رفعة وقربا من الله ورسوله وعلت درجته وإن استعان به على ما نهى الله عنه ورسوله كالشرك والظلم والفواحش استحق بذلك الذم والعقاب فإن لم يتداركه الله تعالى بتوبة وحسنات ماحية وإلا كان كأمثاله من المذنبين؛ ولهذا كثيرا ما يعاقب أصحاب الخوارق تارة بسلبها كما يعزل الملك عن ملكه ويسلب العالم علمه. وتارة بسلب التطوعات فينقل من الولاية الخاصة إلى العامة وتارة ينزل إلى درجة الفساق وتارة يرتد عن الإسلام.

وكل هذا ملحوظ، ونراه رأي العين، نسأل الله أن يعافينا وأن يعاملنا جميعًا برحمته ولا يكلنا إلى أنفسنا يا رب العالمين.

وهذا يكثر فيمن له خوارق شيطانية؛ فإن كثيرا من هؤلاء يرتد عن الإسلام وكثير منهم لا يعرف أن هذه شياطين بل يظنها من كرامات أولياء الله ويظن من يظن منهم أن الله عز وجل إذا أعطى عبدا خرق عادة لم يحاسبه على ذلك كمن يظن أن الله إذا أعطى عبدا ملكا وتصرفا أو مالًا لم يحاسبه الله عليه ومنهم من يستعين بالخوارق على أمور مباحة لا مأمورا بها ولا منهي عنها فهذا يكون من عموم الأولياء وهم الأبرار المقتصدون وأما السابقون المقربون فأعلى من هؤلاء كما أن العبد الرسول أعلى من النبي الملك.

قد تقدم الكلام على هذا وأن الذي يستفيد من المباحات في غير ما حرم الله هم المقتصدون دون السابقين، وأما السابقون بالخيرات فيستفيدون من المباحات في طاعة الله.

ولما كانت الخوارق كثيرا ما تنقص بها درجة الرجل كان كثير من الصالحين يتوب من مثل ذلك ويستغفر الله تعالى كما يتوب من الذنوب: كالزنا والسرقة وتعرض على بعضهم فيسأل الله زوالها وكلهم يأمر المريد السالك أن لا يقف عندها ولا يجعلها همته ولا يحتج بها؛ مع ظنهم أنها كرامات فكيف إذا كانت بالحقيقة من الشياطين تغويهم بها فإني أعرف من تخاطبه النباتات بما فيها من المنافع وإنما يخاطبه الشيطان الذي دخل فيها، ومنهم من يخاطبهم الحجر والشجر وتقول: هنيئا لك يا ولي الله فيقرأ آية الكرسي فيذهب ذلك. وأعرف منهم من يقصد صيد الطير فتخاطبه العصافير وغيرها وتقول: خذني حتى يأكلني الفقراء ويكون الشيطان قد دخل فيها كما يدخل في الإنسي ويخاطبه بمثل بذلك ومنهم من يكون في البيت وهو مغلق فيرى نفسه خارجه وهو لم يفتح وبالعكس وكذلك في أبواب المدينة وتكون الجن قد أدخلته وأخرجته بسرعة أو تريه أنوارا وتحضر عنده من يطلبه ويكون ذلك من الشياطين يتصورون بصورة صاحبه فإذا قرأ آية الكرسي مرة بعد مرة ذهب ذلك كله.

إذن يُشرع التكرار، قد لا تكون الأولى بقوة وتكون الثانية..وهكذا.

وأعرف من يخاطبه مخاطب

لاحظوا يقول "وأعرف من يخاطبه" يتكلم عمن يعرف –رحمه الله–، الله يعاملنا برحمته ولو وقع لنا شيء من هذا –الله أعلم– بحالنا، نسأل الله الثبات والصلاح والهداية وأن لا يكلنا إلى أنفسنا.

ويقول له أنا من أمر الله ويعده بأنه المهدي الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم ويظهر له الخوارق مثل أن يخطر بقلبه تصرف في الطير والجراد في الهواء والمواشي؛ فإذا خطر بقلبه ذهاب الطير أو الجراد يمينا أو شمالا ذهب حيث أراد وإذا خطر بقلبه قيام بعض المواشي أو نومه أو ذهابه حصل له ما أراد من غير حركة منه في الظاهر وتحمله إلى مكة وتأتي به وتأتيه بأشخاص في صورة جميلة وتقول له هذه الملائكة الكروبيون أرادوا زيارتك فيقول في نفسه: كيف تصوروا بصورة المردان فيرفع رأسه فيجدهم بلحى ويقول له علامة أنك أنت المهدي إنك تنبت في جسدك شامة فتنبت ويراها وغير ذلك وكله من مكر الشيطان.

وأكثر ما أُدُّعيت شخصيته المهدي، وتكلم عن هذا الشيخ محمد بن ناصر الدين الألباني –رحمه الله– في السلسلة، وأنها شخصية انتحلت كثيرًا لذلك اضطر بعض الجهلة إلى إنكارها وهذا خطأ، والخطأ لا يُرد بالخطأ والباطل لا يُرد بالباطل، ومنها تلاعب الشياطين بهم، وقد رأيت بعض الفضلاء قبل سنين كثرت عليه الرؤى والأوهام حتى تصوّر نفسه شيئًا ثم بلغني بعض الإخوة أنه بدأ يدعي أنه المهدي، ثم الحمد لله لم أسمع هذا بعد، وقد جالست رجلًا قبل سنين يدعي أنه

المهدي وهو جازم ويقول: عام ألف وأربعمائة وعشرين ستبدأ البيعة لي عند الكعبة، والشياطين تتلاعب بهؤلاء المساكين نسأل الله أن يعافينا وإياكم.

وهذا باب واسع لو ذكرت ما أعرفه منه لاحتاج إلى مجلد كبير وقد قال الله تعالى: {فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه ونعمه فيقول ربي أكرمن} {وأما إذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانني} قال الله تبارك وتعالى: {كلا} ولفظ (كلا) فيها زجر وتنبيه، زجر عن مثل هذا القول وتنبيه على ما يخبر به ويؤمر به بعده وذلك أنه ليس كل من حصل له نعم دنيوية تعد كرامة يكون الله عز وجل مكرما له بها ولا كل من قدر عليه ذلك يكون مهينا له بذلك؛ بل هو سبحانه يبتلي عبده بالسراء والضراء فقد يعطي النعم الدنيوية لمن لا يحبه. ولا هو كريم عليه ليستدرجه بذلك. وقد يحمي منها من يحبه ويواليه لئلا تنقص بذلك من مرتبته عنده أو يقع بسببها فيما يكرهه منه.

وهذا كلام عظيم للغاية ومثله ذكر ابن القيم –رحمه الله– في كتابه (مدارج السالكين)، {كلا}، أي ليس الأمر كذلك، قد يوسع على من لا يحب ويضيق على من يحب.

وأيضا كرامات الأولياء لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى فما كان سببه الكفر والفسوق والعصيان فهو من خوارق أعداء الله لا من كرامات أولياء الله فمن كانت كراماته لا تحصل بالصلاة والقراءة والذكر وقيام الليل والدعاء وإنما تحصل عند الشرك: مثل دعاء الميت والغائب أو بالفسق والعصيان وأكل

المحرمات مثل الحيات والزنابير والخنافس والدم وغيره من النجاسات ومثل الغناء والرقص؛

أيضًا هذا من الأمثلة الكثيرة أنه يصرح على أن هذه الأمور شرك.

لا سيما مع النسوة الأجانب والمردان وحاله خوارقه تنقص عند سماع القرآن وتقوى عند سماع مزامير الشيطان فيرقص ليلا طويلا فإذا جاءت الصلاة صلى قاعدا، وينقر الصلاة نقر الديك وهو يبغض سماع القرآن وينفر عنه ويتكلفه ليس له فيه محبة ولا ذوق ولا لذة عند وجده ويحب سماع المكاء والتصدية وتوجد عنده مواجيد، فهذه أحوال شيطانية؛ وهو ممن يناله قوله تعالى {ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين}. فالقرآن هو ذكر الرحمن قال الله تعالى: {ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى} {قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا} {قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى} يعني تركت العمل بها قال ابن عباس رضي الله عنهما: تكفل الله لمن قرأ كتابه وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة؛ ثم قرأ هذه الآية.

ومما يجب أن يعلم أن الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم رسولًا إلى جميع الإنس والجن فلم يبق إنسي ولا جني إلا وجب عليه الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم واتباعه فعليه أن يصدقه فيما أخبر ويطيعه فيما أمر ومن قامت عليه الحجة برسالته فلم يؤمن به فهو كافر سواء كان إنسيا أو جنيا.

فمحمد صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى الثقلين باتفاق المسلمين وقد استمعت الجن القرآن وولوا إلى قومهم منذرين لما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي

بأصحابه ببطن مكة لما رجع من الطائف وأخبره الله بذلك في القرآن بقوله {وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم منذرين} {قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم} {يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم} {ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه أولياء} {أولئك في ضلال مبين}.

وأنزل الله تعالى بعد ذلك: {قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا} {يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا} {وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا} {وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا} {وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا} {وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا} أي السفيه منا في أظهر قولي العلماء.

وقال غير واحد من السلف: كان الرجل من الإنس إذا نزل بالوادي قال: أعوذ بعظيم هذا الوادي من شر سفهاء قومه فلما استغاثت الإنس بالجن ازدادت الجن طغيانا وكفرا كما قال تعالى: {وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا} {وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا} {وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا}.

وكانت الشياطين تُرمى بالشهب قبل أن ينزل القرآن؛ لكن كانوا أحيانا يسترقون السمع قبل أن يصل الشهاب إلى أحدهم فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ملئت السماء حرسا شديدا وشهبا وصارت الشهب مرصدا لهم قبل أن يسمعوا كما قالوا: {وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد

له شهابا رصدا} وقال تعالى في الآية الأخرى: {وما تنزلت به الشياطين} {وما ينبغي لهم وما يستطيعون} {إنهم عن السمع لمعزولون} قالوا: {وأنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا} {وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا} أي على مذاهب شتى كما قال العلماء منهم المسلم والمشرك واليهودي والنصراني والسني والبدعي {وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا} أخبروا أنهم لا يعجزونه: لا إن أقاموا في الأرض ولا إن هربوا منه {وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا} {وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون} أي الظالمون يقال أقسط إذا عدل وقسط إذا جار وظلم {فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا} {وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا} {وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا} {لنفتنهم فيه ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا} {وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا} {وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا} {قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحدا} {قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا} {قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا} أي ملجأ ومعاذا {إلا بلاغا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا} {حتى إذا رأوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عددا}.

ثم لما سمعت الجن القرآن أتوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وآمنوا به وبايعوه، وهم جن نصيبين كما ثبت ذلك في الصحيح من حديث ابن مسعود وروي أنه قرأ عليهم سورة الرحمن وكان إذا قال: {فبأي آلاء ربكما تكذبان} قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد، ولما اجتمعوا بالنبي صلى الله عليه وسلم سألوه الزاد لهم ولدوابهم فقال: «لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه تجدونه أوفر ما يكون لحما وكل بعرة علف لدوابكم»، قال النبي صلى الله عليه وسلم:

«فلا تستنجوا بهما فإنهما زاد لإخوانكم من الجن»، وهذا النهي ثابت عنه صلى الله عليه وسلم من وجوه متعددة وبذلك احتج العلماء على النهي عن الاستنجاء بذلك وقالوا فإذا منع من الاستنجاء بما أُعد للجن ولدوابهم فما أعد للإنس ولدوابهم من الطعام والعلف أولى وأحرى.

ومحمد صلى الله عليه وسلم أرسل إلى جميع الإنس والجن وهذا أعظم قدرا عند الله تعالى من كون الجن سخروا لسليمان عليه السلام فإنهم سخروا له أن يتصرف فيهم بحكم الملك ومحمد صلى الله عليه وسلم أرسل إليهم يأمرهم بما أمر الله به ورسوله لأنه عبد الله ورسوله ومنزلة العبد الرسول فوق منزلة النبي الملك.

فسليمان –عليه السلام– استفاد من الجن في الأمور المباحة، أما نبينا محمد –صلى الله عليه وسلم– لم يستفد منهم، وإنما دعاهم إلى الإسلام وإلى الدين –صلى الله عليه وسلم–.

والكلام في استعمالهم في المباح.

وكفار الجن يدخلون النار بالنص والإجماع وأما المؤمنون منهم فجمهور العلماء على أنهم يدخلون الجنة وجمهور العلماء على أن الرسل من الإنس ولم يبعث من الجن رسول. لكن منهم النذر وهذه المسائل لبسطها موضع آخر.

والمقصود هنا أن الجن مع الإنس على أحوال: فمن كان من الإنس يأمر الجن بما أمر الله به ورسوله من عبادة الله وحده وطاعة نبيه ويأمر الإنس بذلك فهذا

من أفضل أولياء الله تعالى وهو في ذلك من خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ونوابه.

ومن كان يستعمل الجن في أمور مباحة له فهو كمن استعمل الإنس في أمور مباحة له وهذا إذا كان يأمرهم بما يجب عليهم وينهاهم عما حرم الله عليهم ويستعملهم في مباحات له فيكون بمنزلة الملوك الذين يفعلون مثل ذلك، هذا إذا قدر أنه من أولياء الله تعالى فغايته أن يكون في عموم أولياء الله تعالى مثل النبي الملك مع العبد الرسول: كسليمان ويوسف مع إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. ومن كان يستعمل الجن فيما ينهى الله عنه ورسوله إما في الشرك وإما في قتل معصوم الدم أو في العدوان عليهم بغير القتل كتمريضه وإنسائه العلم وغير ذلك من ظلمه وإما في فاحشة كجلب من يطلب منه الفاحشة فهذا قد استعان بهم على الإثم والعدوان ثم إن استعان بهم على الكفر فهو كافر وإن استعان بهم على المعاصي فهو عاص: إما فاسق وإما مذنب غير فاسق

ويظهر –والله أعلم– أن كلام شيخ الإسلام فيه نظر، فإن مقتضاه أنه يجوز أن يستعمل الإنسي الجني في الأمر المباح، وهذا خطأ من أوجه:

- الوجه الأول: قال سبحانه: {ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا}، في هذه الآية لم يذكر نوع المستمتع به، والقاعدة الأصولية أن حذف المعمول يفيد العموم فهو شامل لكل استمتاع، فيدل على أن أي استمتاع للإنسي بالجني محرم.

- الوجه الثاني: لو كان الاستفادة منهم جائزًا شرعًا لفعل ذلك النبي –صلى الله عليه وسلم– والخلفاء الراشدون، في أمور الدين، لماذا اتخذ بكر بن خزاعة عينًا له؟ ولماذا يرسل الصحابي حتى يأتي بخبر القوم؟ لاستعان بالجن في هذه الأمور المستحبات أو الواجبات؟ ولم يفعل ذلك ولو كان فعل ذلك جائزًا لفعلوه.
- الوجه الثالث: لم أر أحدًا من العلماء نص على مثل هذا، بل كلام العلماء واضح في أن استعمال الجن محرم، بل في تعريفهم للكاهن والعراف يذكرون مثلًا بالجن، أن العراف يستعين بالجن على مكان الضالة..إلى غير ذلك، فتراهم يتكلمون عن العرافين والكهنة و استعمالهم للجن ولم يذكروا أنه استعمال محرم أو غير محرم، ولو كان مثل هذا جائزًا لتوارد العلماء على مثل هذا. لذا يظهر لي –والعلم عند الله– أن كلام شيخ الإسلام خطأ، وأنه لا يصح أن يُتبع وأنه قول شاذ.
- الوجه الرابع: أن الناس قد يفعلون ذلك بحجة الإباحة أو الخير ثم تتلاعب بهم الشياطين، وقد يزعم أحدهم أن الشيطان صالح، لأجل ذلك يستعين به كما يفعل بعض القرّاء وبعض المعبرين، فيقال: وما يدريك عن صلاحه من فساده؟ وما يدريك أنه يستدرج بك؟ كما ذكر شيخ الإسلام من حيل الشياطين، فلو قُدر أن مثل هذا يصح فإنه يحرم من باب سد الذرائع.

فهذه الأمور الأربعة تدل على أن القول خطأ ولا يصح أن يُتبّع، ورحمه الله رحمة واسعة وجزاه الله عنا خير ما يجزي مصلحًا ومجددًا، رحمه الله تعالى.

وإن لم يكن تام العلم بالشريعة فاستعان بهم فيما يظن أنه من الكرامات: مثل أن يستعين بهم على أن يطيروا به عند السماع البدعي أو أن يحملوه إلى عرفات ليحج الحج الشرعي الذي أمره الله به ورسوله، أو أن يحملوه من مدينة إلى مدينة ونحو ذلك فهذا مغرور قد مكروا به.
وكثير من هؤلاء قد لا يعرف أن ذلك من الجن بل قد يسمع أن لأولياء الله كرامات وخوارق للعادات وليس عنده من حقائق الإيمان ومعرفة القرآن ما يفرق به بين الكرامات الرحمانية وبين التلبيسات الشيطانية فيمكرون به بحسب اعتقاده

إذا كانوا كذلك فالمفترض –رحمه الله– أن يشدد وأن لا يفتح الباب من باب المباحات.

فإن كان مشركا يعبد الكواكب أو الأوثان أوهموه أنه ينتفع بتلك العبادة ويكون قصده الاستشفاع والتوسل ممن صور ذلك الصنم على صورته من ملك أو نبي أو شيخ صالح فيظن أنه يعبد ذلك الملك أو النبي أو الصالح وتكون عبادته في الحقيقة للشيطان قال الله تعالى: {ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون} {قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون}.

ولهذا كان الذين يسجدون للشمس والقمر والكواكب يقصدون السجود لها فيقارنها الشيطان عند سجودهم ليكون سجودهم له؛ ولهذا يتمثل الشيطان بصورة من يستغيث به المشركون. فإذا كان نصرانيا واستغاث بجرجس أو غيره جاء الشيطان في صورة جرجس أو غيره ممن يستغيث به وإن كان منتسبا إلى الإسلام وقد استغاث بشيخ يحسن به الظن من شيوخ المسلمين جاءه في صورة ذلك الشيخ وإن كان من مشركي الهند جاء في صورة من يعظمه ذلك المشرك. ثم إن الشيخ المستغاث به إن كان ممن له خبرة بالشريعة لم يعرفه الشيطان أنه تمثل له لأصحابه المستغيثين به وإن كان الشيخ ممن لا خبرة له بأحوالهم ونقل أقوالهم له فيظن أولئك أن الشيخ سمع أصواتهم من البعد وأجابهم وإنما هو بتوسط الشيطان.

ينبغي أن يُعلم أن سماع البعيدات خاص بالله سبحانه، ومن اعتقده في غير الله فقد كفر، ذكر هذا ابن تيمية في (الأخنائية)، وذكره ابن عبدالهادي في (الصارم المنكي)، فلا يمكن لأحد أن يسمع البعيدات إلا أن يكون اتسع سمعه أو علم مثل هذا، وكلاهما خاص بالله، إلا في حال أن تنقله إليهم الشياطين، وهذا لا يدعي أنه سمعه ولا علمه وإنما يقول أخبرتني الشياطين.

ولقد أخبر بعض الشيوخ الذين كان قد جرى لهم مثل هذا بصورة مكاشفة ومخاطبة فقال: يريني الجن شيئا براقا مثل الماء والزجاج ويتمثلون له فيه ما يطلب منه الإخبار به قال: فأخبر الناس به ويوصلون إلي كلام من استغاث بي من أصحابي فأجيبه فيوصلون جوابي إليه.

وكان كثير من الشيوخ الذين حصل لهم كثير من هذه الخوارق إذا كذب بها من لم يعرفها وقال إنكم تفعلون هذا بطريق الحيلة كما يدخل النار بحجر الطلق وقشور النارنج ودهن الضفادع وغير ذلك من الحيل الطبيعية فيتعجب هؤلاء المشايخ ويقولون نحن والله لا نعرف شيئا من هذه الحيل. فلما ذكر لهم الخبير إنكم لصادقون في ذلك ولكن هذه أحوال شيطانية

وهذا إنصاف وكلام مهم، قد يتخذ مثل هذا للدخول في النار وخديعة الناس، وقد لا يتخذ لكن الشياطين تتلاعب به وهو لا يدري.

أقروا بذلك وتاب منهم من تاب الله عليه لما تبين لهم الحق وتبين لهم من وجوه كثيرة أنها من الشيطان ورأوا أنها من الشياطين لما رأوا أنها تحصل بمثل البدع المذمومة في الشرع وعند المعاصي لله ورسوله، ولا تحصل عندما يحبه الله ورسوله من العبادات الشرعية فعلموا حينئذ أنها من مخارق الشياطين لأوليائه؛ لا من كرامات الرحمن لأوليائه.
والله تعالى أعلم وأحكم، والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

أسأل الله الذي لا إله إلا هو بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يغفر لشيخ الإسلام ابن تيمية وأن يجمعني وإياكم وإياه ووالدينا وأحبابنا بالفردوس الأعلى، وأسأل الله أن يجعل هذا المجلس حجة لنا عند لقائه وسببًا لرضاه إنه الرحمن الرحيم.

وجزاكم الله خيرًا.